خَالد محمَّد خَالد

الدولة في الإسلام

المقطم للنشر والتوزيع

الطبعة الرابعة

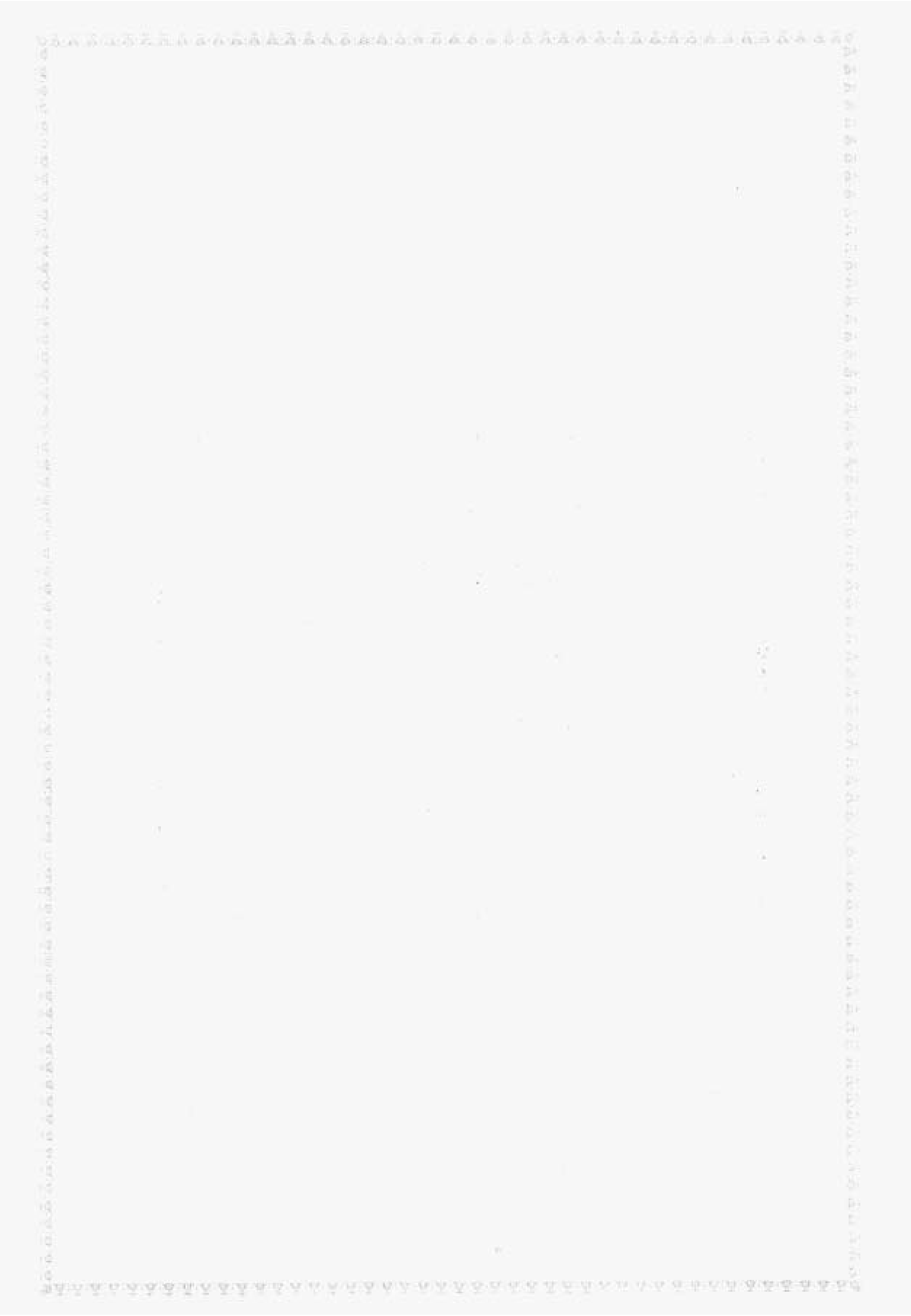
جمادى الاخر ١٤٢٥هـ ـ أغسطس ٢٠٠٤م
القاهرة

دار المقطم للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان ـــ عابدين
القاهرة
تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ ـــ ٧٩٤٦١٠٩
فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

وأن احكم بينهم بما أنزل الله
ولا تتبع أهواءهم
واحذرهم أن يفتنوك
عن بعض ما أنزل إليك

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

١

في عام ١٩٥٠م ظهر أول كتاب لي، وكان عنوانه: "من هنا.. نبدأ".

وكان ينتظم أربعة فصول، كان ثالثها بعنوان "قومية الحكم".

وفي هذا الفصل ذهبت أقرر أن الإسلام دين لا دولة، وأنه ليس في حاجة إلى أن يكون دولة.. وأن الدين علامات تضيء لنا الطريق إلى الله وليس قوة سياسية تتحكم في الناس، وتأخذهم بالقوة إلى سواء السبيل، ما على الدين إلا البلاغ وليس من حقه أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن ثواب.

وقلت: إن الدين حين يتحول إلى "حكومة" فإن هذه الحكومة الدينية تتحول إلى عبء لا يطاق. وذهبت أعدد يومئذ ما أسميته: "غرائز الحكومة الدينية" وزعمت لنفسي القدرة على إقامة البراهين على أنها، أعني الحكومة الدينية، في تسع وتسعين في المائة من حالاتها جحيم وفوضى، وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التي استنفدت أغراضها ولم يعد لها في التاريخ الحديث دور تؤديه.

وكان خطئي أنني عممت الحديث حتى شمل الحكومة الإسلامية.

وقلت: إن غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل

البعد، ولخصت هذه الغرائز فى:

١ـ الغموض المطلق، إذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة، لا يعرف مأتاها، ولا يدرك مداها، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق..

٢ـ ومن خصائصها ـ كما قلت يومذاك ـ أنها لا تثق بالذكاء الإنسانى ولا تأنس له، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته، لأنها تخافه وتخشاه.

٣ـ وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها تهيب بجانب الضعف فيهم، فتلقى فى روعهم أن رواد الخير والحرية والفكر والإصلاح ليسوا سوى أعداء لله ولرسوله يحاولون نفى الدين عن المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتصونه.

٤ـ والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية، وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه، بل ولا مجرد لفت النظر فضلا عن المعارضة والنقد.

٥ـ والوحدانية المطلقة أعتى غرائزها ـ وهى تحفزها إلى مكافحة الرأى مهما يكن حكيما، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصة نافعة.

٦ـ والجمود الذى تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لان صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم.

٧ـ والقسوة المتوحشة هى سيدة غرائزها وأكثرها عتوا ونفوذا وأنها لتحز عنقك وتهرق دمك وهى تصيح من فرط نشوتها: واها لريح الجنة..

* * *

هكذا ذهبت أنعت وأهدم ما أسميته يومها بالحكومة الدينية.

وهكـذا أخـذت كـل خصـائص ونقـائص الحكـم الاتقراطـى الديكتاتورى وخلعته على ما أسميته "الحكومة الدينية"..!!

ولم أكـن يومئـذ أخـدع نفسـى ولا أزيـف اقتنـاعى، فليس ذلـك والحمد لله من طبيعتى. إنما كنت مقتنعا بما أكتب مؤمنا بصوابه.

وحين أرجع بذاكرتى إلى الأيام التى سطرت فيها هذا الرأى وهـذه الكلمات لا أخطئ التعرف إلى العوامل التـى تغشـتنى بـهذا التفكـير.. والكاتب حين يحيا بفكـر مفتـوح بعيـداً عـن ظـلام التعصـب وغواشـى العناد، فإنه يستطيع دائما أو غالبا أن يهتدى إلى الصواب ويقـترب مـن الحقيقة ويعانقها فى يقين جديد، وحبور أكيد، ونحن مطالبون بأن نفكـر دائما، ونراجع أفكارنا، وننكر ذواتنا ونتخلى عن كبريائنا أمام الحقـائق الوافدة.. وإذا لم نفعل فسنكون كما قال "أفلاطون":

"مجانين، إذا لم نستطع أن نفكر.."!!

"ومتعصبون، إذا لم نرد أن نفكر.."!!

"وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكر.."!!

* * *

وأحمد الله على أننـى لسـت مـن المجـانين، ولا المتعصبيـن، ولا العبيد.. ومن أجل هذا كان من اليسير على أن أسـتقبل فـى بشـر ومـودة هذا التفكير الجديد الذى واتـانى مـن طـول التـأمل والتمعـن وتقليـب وجوه النظر فى حياد سديد.

ترى ماذا كانت المقدمات التى أوصلتنى إلـى موقفـى القديـم مـن "الحكومـة الدينيـة"، أو بتعبـير أصـح مـاذا كـانت البواعـث النفسـية

والفكرية التى أفضت بى إلى ذلك الموقف..؟؟

وأود - أولا - أن أشير إلى أن تسمية "الحكومة الإسلامية" بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ، فعبارة "الحكومة الدينية" لها مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلا، وطال مكثه، وكان الدين المسيحى يُستغَل أبشع استغلال فى دعمه وفى إخضاع الناس له.

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت أغراضها سياسية، وأصلت الناس سعيراً بسوء تصرفاتها وتحكمها.. وهى فى المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الإسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية، لا سيما فى العصور الوسطى، عصور الظلام!!

ولعل أول خطأ تغشى منهجى الذى عالجت به قديما قضية الحكومة الدينية، كان تأثرى الشديد بما قرأته عن الحكومات الدينية التى قامت فى أوربا، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثارا تغطى به عريها وعارها..

أجل.. فإنى أستطيع أن ألخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم وأردها إلى عاملين اثنين - كان هذا أولهما.. التأثر بما قرأته عن الحكومة الدينية المسيحية، ولذلك تجدنى أقول فى كتابى "من هنا نبدأ"

".. ففى الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التى لا تخطر للشيطان نفسه ببال، فكان الخازوق، ووتد التشهير، وصلم الآذان، وتمزيق الجسد، ومحاكم التفتيش، وحرق العلماء بالنار وهم أحياء..!!".

ثم قلت:

"وفى الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة، حتى إن حاكما دينيا واحدا - هو الحجاج - أباد البقية الكريمة الصالحة من

صحابة رسول الله، حتى قال عنه "عمر بن عبد العزيز"

"لو جاءت كل أمة بخطاياها، وجئنا نحن بنى أمية بالحجاج وحده لرجحناهم..!!"

إذن، فقد كنت فى قمة التأثر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى الإسلام واعتبرتهم حكومة دينية إسلامية..!!

ومضيت أدحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الإسلام بنفس القوة التى دحض بها الفكر الإنسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى ظل الكنيسة وكانت أكثر خطراً على المسيحية من الشيطان نفسه!!

من قال إن الحجاج حاكم دينى..؟ وهل فى الإسلام كهنوت يستطيع أى حاكم أن يستمد منه سلطانا مطلقا وفى ذات الوقت يكون مقدسا..؟؟ لا. ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنيا وخطأ.

إن الإسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح أيا منهم سلطة بابوية كهنوتية، لأنه لا يتسع لاى كهنوت لا فى تعاليمه ولا فى تطبيقاته.

من أجل هذا كان تسمية الحكومات الإسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الإسلام وزرها أمر مجاف لكل صواب..

* * *

أما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه. ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم.

ذلك أن "الإخوان المسلمين" كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير.

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها إقبال أسراب النحل على رحيق الزهور!!

وذات يوم والجماعة فى أوج مجدها الباهر، لا ندرى هل انبثق منها، أو أقحم عليها وتسلل إليها ما سمى يومئذ بالتنظيم السرى، وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاغتيالات لفرض الدعوة.. الدعوة التى كانت قد حققت بالإقناع والمنطق ما لم تحققه دعوة أخرى.. والدعوة التى كانت لباقة مرشدها الأستاذ حسن البنا رحمه الله وإخلاصه يفتحان له الآذان الصم والقلوب الغلف، ويسلسان له قياد الجماهير كافتهم ومثقفيهم.

لفتت حوادث الاغتيال التى مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أفئدتهم، وكنت من الذين أقض مضجعهم هذا النذير. وقلت لنفسى إذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون؟؟!

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى "فولتير":

"إن الذى يقول لك اليوم: اعتقد ما أعتقده وإلا لعنك الله،
سيقول لك غدا: اعتقد ما أعتقده وإلا قتلتك"!!!

على أن ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن إلى مرحلة القتل والاغتيال!!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى إلى التحذير من قيام أى حكومة دينية باسم الإسلام.

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه..

كان الخطأ الأول مضاهاتي الحكومات الدينية الكنسية بحكم الإسلام.

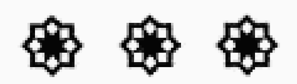
وكان الخطأ الثاني تعميم نتائج ما اقترفه الجهاز السرى باسم الإسلام.

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته. فقد جعلت ما تأثرت به من قراءاتي عن الحكومة الدينية في المسيحية، وما تأثرت به من تحول بعض الشباب المسلم من نُسَّاك إلى قتلة.. جعلت هذا وذاك "مصدر" تفكيرى، لا "موضع" تفكيرى!! وفارق كبير بين أن تجعل الحدث أو الشىء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك.

عندما يكون مصدر تفكيرك فإنه يقودك فى طريقه هو، لا فى طريق الحقيقة. وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا إلى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكرى حظه فى تمعنها ودراستها.

أما حين يكون الشىء موضع تفكيرك فإنه يمد تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحكم مسبق يتحرك الفكر داخل إطاره الحديدى الصارم.

إلى هذا السبب الجوهرى أرد خطئى فيما أصدرته - قديما - من حكم ضد الحكومة فى الإسلام، هذه التى أسميتها بالحكومة الدينية.



٢

والآن، وفى ضوء اقتناعى الجديد بأن الإسلام "دين، ودولة" فكيف وصلت إلى هذه الحقيقة؟؟ وما شكل هذه الدولة؟؟ وما أغراضها وأهدافها حين تقوم؟؟

أما التقائى بهذه الحقيقة، أو لنتواضع ولنقل هذه النتيجة، فقد جمعنى بها فى لقاء سعيد، العقل لا الوجدان.

لقد توارت الأسباب التى حدثتكم عنها من قبل، واستقبلت القضية بعقل غير عصى، ونفس تواقة إلى معرفة الحق وإعلانه بصوت جهير، دون أن تجد غضاضة أو خجلا من أن تعترف بالخطأ وتواجه الصواب.

قلت لنفسى:

قبل أن يكون هناك إسلام كان هناك عرب. وهؤلاء العرب هم الرعيل الأول الذى حمل راية الإسلام، وسار بها مشرقا ومغربا.. فهل كان أولئك العرب عنصرا مهيأ لأن ينشئ "حكومة" أو يتقبل تبعاتها ويحملها فى اقتدار..؟؟

هل وقعت للعرب قبل الإسلام تجربة مع الحكم فأسسوا دولا وحكومات؟

إنه على فرض انتفاء هذا الأمر، فلن يسلب الإسلام حقه ولا مقدرته على تأسيس دولة.

ذلك أن الإسلام جاء ليكون قوة تغيير عميمة وشاملة.. جاء فغير العقيدة والمجتمع والسلوك.

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة، فإن الإسلام بخصائصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح.

ومع هذا فسنرى أن هؤلاء الذين نزل الإسلام أول ما نزل عليهم وفيهم، كانوا وكان آباؤهم ممن أنشأوا الممالك والإمارات.

فقبل مجيء الإسلام بقرون، كان هناك عرب لهم حكومات هم الذين أنشأوها، وحضارة هم الذين صنعوها.

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن [١]:

كان فى الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها إطلال المبانى الضخمة، والنقوش الكثيرة. وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والأبهة التى وصلت إليها مملكة سبأ.

كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة ومملكة الغسانيين. وكان فى جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى.

وكان هناك مملكة "معين" وقد سبقت مملكة "سبأ" فى الظهور. وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة.

وتلتها فى الظهور مملكة سبأ التى اشتهرت بالثروة والقوة بين

---

[١] تاريخ الإسلام السياسى جـ١.

ممالك العالم فى ذلك الحين، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش "أوغسطس قيصر" عن أسوار مأرب ودحرتها.

وكان لها تجارة واسعة مع مصر، وسوريا، وبابل.. ولا تزال سدودها وأحواضها تثير إعجاب الرحالة والسائحين، وتدل آثارها وأطلال أبنيتها الفخمة على ما بلغته من العظمة والمجد.

وكان لها أسطول بحرى ينقل تجارتها إلى حيث تريد، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية.

وكذلك كان هناك مملكتا الحيرة وغسان، قامتا على حدود بادية الشام.

وكانت الامبراطورية الفارسية تستعين بمملكة الحيرة على حرب الروم، كما كان الرومان يستعينون بأمراء غسان على الفرس..!!

وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادى حتى ظهور الإسلام، وكان لأهلها أثر كبير فى الحضارة العربية، وتعاقب على ملكها خمسة وعشرون ملكا.

ويقول الدكتور أحمد سوسة فى كتابه "حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور".

"تبدأ المرحلة الأولى من حضارة العرب القديمة فى حوالى أربعين ألف سنة قبل الميلاد، وتنتهى فى حوالى ثمانية عشر ألفا قبل الميلاد، وقد عاشت هذه الحضارة ضمن حدود جزيرة العرب.."

".. ويرى الخبراء المتخصصون فى شئون البلاد العربية أن الهجرة من جزيرة العرب تمت فى الأصل من منطقة جنوبى

الجزيرة، ومنها توجهت الجماعات النازحة من جزيرة العرب إلى الشمال، ثم توزعوا على أطراف الهلال الخصيب في فلسطين وسورية ومصر والعراق.."

"وفى هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل العربية النازحة من جزيرة العرب بفضل الحضارة والخبرة اللتين اكتسبتهما فى وطنها الأصلى خلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى فى مستوطناتها الجديدة، فأسست هذه القبائل فى مدة قصيرة نسبيا لا تتجاوز ثلاثة آلاف سنة أقدم الامبراطوريات وأعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم فى تاريخ البشرية أى الامبراطوريات الساميات الأربع: الأكدية، والبابلية، والآشورية، والكلدانية الآرامية.."

"إن الهجرات المتتالية التى انبعثت من جزيرة العرب كانت من أهم العوامل فى تقدم الكيان الحضارى فى الشرق الأدنى والسير به نحو التطور فى مختلف الميادين الزراعية والتجارية، والسياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية. ذلك الكيان الذى انبعثت منه أقدم الامبراطوريات وأعظمها فيما عرفه التاريخ.."

"فالجزيرة العربية إذن هى بحق مهد الحضارات السامية العربية، فقد قذفت بأبنائها الأشداء إلى ما وراء الصحارى.. فهى والحالة هذه الينبوع الذى انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية فى الهلال الخصيب.."

"وكانت مستوطنات شعب الجزيرة فى عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحد يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الأجزاء تضم الجزيرة العربية "الأم" وأبناءها فى بلاد المهجر..

لقد كان هؤلاء العرب بناة أعظم وأقدم امبراطورية سامية عرفها التاريخ. وهى الامبراطورية الأكدية التى أسسها "سرجون" فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتى سميت بالأكدية نسبة إلى عاصمتها "أكد".

وعندما استقرت الحضارة السامية فى العراق ازدهرت فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا رئيسيا وهاما فى تقدم الحضارة الإنسانية.."

"ولقد بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المد والجزر كونت فى خلالها دولا عربية كدولة الغساسنة فى سورية، والمناذرة فى العراق، ودولة الأنباط والتدمريين وغيرها من الإمارات العربية كإمارة كندة، وإمارة الحضر وإمارة الرها، وإمارة حمص وغيرها حتى ظهر الإسلام فانبعثت به الحضارة العربية على مستوى أوسع وأعم، وعادت فانبعثت من منبعها الأصلى (جزيرة العرب) وأسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التى سبقتها بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوربا).. وقد حاولت أوربا المسيحية قهر الحضارة العربية الإسلامية وإبادتها ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت حوالى مائة

وخمسين عاما ".

ويختم المؤلف بحثه هذا بكلمة "جورج سارتون" الذى يقول:

"سبق للعرب أن قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من التقدم الإنسانى طوال ألفى سنة على الأقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى أربعة قرون تقريبًا وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد ".

* * *

إذن كان هناك ممالك عربية وحكومات عربية وحضارة أيام كانت "أوربا" وما حولها مغارات وكهوفا، وظلاما فى ظلام.

وإذن، فالبيئة التى نزل عليها الإسلام كانت ذات ماض عريق وتجربة عريقة وممارسة طويلة الأمد مع الحكم والحكومات.

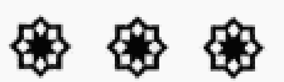
ونحن نعلم أن الإسلام جاء ليحدث تغييرا وتصعيدا. تغييرا للباطل، وتصعيدا وتعلية لكل ما هو ضرورى وحق.

ولم يكن العرب فى عصور الجاهلية الموغلة فى البعد، بقادرين على ما يعجز عنه أسلافهم فى ظل الإسلام بكل قوته وعظمته ورشده.

وحتى مكة ـ فيما بعد ـ والتى لم تكن فيها حكومة، نجدها قد قامت بتوزيع مسئوليات الحكومة على قبائلها وبيوتاتها وأفذاذ رجالها فكانت قوى المجتمع هى التى تحكم وتقود فى تنظيم ناضج وسديد.

والمدينة كانت قبل ذهاب الإسلام إليها تتهيأ لتتويج ملك عليها وإذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما..

وهكذا لم يكن الإسلام يعمل فى خواء ولا يبدأ من فراغ حين يدعو أتباعه لتأسيس حكومة، بل وحين يبدأ بالفعل فى تأسيس دولة وقف على رأسها إمام المتقين وخاتم المرسلين وخير خلق الله أجمعين.



٣

وعندما توجد "أمة" تؤلف بينها وحدة اللغة والجنس والدين.. وتوجد الأرض أو "الوطن" الذى تقطنه هذه الأمة.. ثم توجد "سلطة عليا" تنظم شئون هذه الجماعة، فقد وجدت الدولة..

ولقد توفر هذا كله للامة المسلمة بعد أن استقر مقام المسلمين فى المدينة، فقد كان هناك "أمة" هى أمة الإسلام، وكان هناك وطن وعاصمة لهذه الأمة، هى "المدينة".. وكان هناك سلطة عليا تتمثل فى الرسول ﷺ بما يوحى إليه من ربه وبما تتمخض عنه مشوراته الدائمة مع أصحابه حول كل القضايا والمواقف التى لم يأت الوحى فيها ببيان.

وهذه حقيقة لا تقبل المماراة.

يقول المستشرق "هاملتون جب":

"بعد الهجرة قام فى المدينة مجتمع قائم بذاته منظم على قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد.

"وقد كانت فكرة الرسول الثابتة عن هذا المجتمع الدينى الجديد الذى أقامه، أنه سينظم تنظيمًا سياسيًا، ولن يكون هيئة دينية منفصلة ومندرجة تحت حكومة زمنية"[1].

---

[1] نقلا عن كتاب: النظريات السياسية فى الإسلام للدكتور ضياء الدين الريس.

ويقول المرحوم الدكتور محمد ضياء الدين الريس [1]:

"لم يكن هناك أية وظيفة من الوظائف التى يمكن أن يقال عنها إنها سياسية ـ من إعداد الأداة لتنفيذ العدالة أو تنظيم الدفاع، أو بث للتعليم، أو جباية للمال، أو عقد معاهدات، أو إنفاذ سفارات إلا كانت هذه الدولة تؤديها على عهد رسول الله ﷺ".

فالمجتمع المسلم فى المدينة إذن كان له دولة يقودها رسول الله ﷺ.. دولة لها جيش، وراية، وقوانين، وضرائب، وكل مقومات الدولة الحديثة. واتسع نطاق هذه الدولة، وقام صرحها العظيم فى عهد الخلفاء الراشدين، ثم فيما تلاه من عصور وعهود.

ولعلنا لا نجد دينا، ولا نظرية تتطلب طبيعتهما قيام الدولة كما نجد ذلك فى الإسلام.

فالإسلام دين نظام، ليس فى نطاق المعاملات وحسب، بل وفى نطاق العبادات.. فالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، كلها تؤدى وفق نظام حازم وحكيم.

وهو لا يُعنَى بتنظيم الحياة فى نطاقها الواسع فحسب، بل وفى أضيق نطاق.

يقول الرسول ﷺ معلما أصحابه وأمته:

"إذا كنتم ثلاثة فى سفر، فأمروا أحدكم".

أى، فليختر الثلاثة من بينهم واحدا يكون عليهم "أميرا" ينظم مسعاهم ومسراهم.

---

[1] المرجع السابق.

فكيف نتوقع من دين يُعنَى بالإمارة بين ثلاثة ألا يعنى بها بالنسبة لمجتمع كبير وأمة عريضة..؟!

ولقد كان أصحاب الرسول رضوان الله عليهم على وعى كامل بهذه الحقيقة ولهذا وجدناهم يتجه اهتمامهم بعد موت الرسول مباشرة إلى اختيار الخليفة، حتى قبل تجهيز الرسول ودفنه!!

* * *

كان الرسول ﷺ يدرك أن بناء "دولة الإسلام" واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول.

بل لعله كان يرى ذلك جزءا من مهام الأنبياء والمرسلين أيضا..

فعليه تنزلت الآية الكريمة التى خاطب الله بها نبيه داود عليه السلام:

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ، وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾.

فالله سبحانه يخاطب "داود" نبيه بأنه خليفته فى الأرض يسوس أمور قومه، وينشر العدل، ويحكم بين الناس بالحق.. أفلا يكون "محمد" عليه السلام كذلك نبى دعوة، وقائد دولة وأمة؟؟

والإسلام باعتباره "خاتم" الأديان، و"صفوة" الشرائع، لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بإرساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين الخاتم.

وما دام المجتمع البشرى بطبيعة تكوينه فى حاجة إلى دولة أو دول تنظم سلوكه وحياته، فكيف يغفل الإسلام عن تلبية هذه الحاجة الملحة والضرورية..؟؟

بل إن الكتب التى أرسلها الرسول الكريم فى السنة السادسة للهجرة إلى نفر من أباطرة العالم يومئذ وحكامه، وعلى رأسهم "هرقل" امبراطور الروم، و"كسرى" فارس، و"النجاشى" امبراطور الحبشة، و"المقوقس" حاكم مصر وغيرهم.

نقول إن هذه الخطوة من جانب الرسول كان لها مغزاها السياسى بعد مغزاها الدينى.

إنها تدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده والدخول فى دينه الخاتم، ولكن، لعلها بعد هذا تشير إلى ما كان الرسول عليه السلام يعلقه على الإسلام من أمل فى إقامة "حكومة عالمية" تقوم على منهج الدين وقيمه ومبادئه لا سيما بعد أن كشف الله له حجب الغيب يوم الخندق فرأى الإسلام يضيء بصرى والشام والعراق وفارس والروم..!!

لقد كانت هذه الرؤية لا الرؤيا التى وقعت يقظة لا مناما حين كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع أصحابه فى حفر الخندق فاعترضتهم صخرة عاتية، فتعرض لها الرسول ﷺ بمعوله وحين انصدع جبروتها وطار شررها كبر الرسول ﷺ ربه وحمده بصوت جهير، فقد رأى نورا يغمر جنبات الأرض، وألقى فى روعه أنه نور الإسلام سيضيء البلاد ويهدى العباد.

كانت هذه الواقعة فى غزوة الخندق فى السنة الخامسة من الهجرة وكانت كتابته للأباطرة والملوك بعد ذلك بقليل فى السنة السادسة للهجرة.. أفلا نلمح علاقة بين الموقفين؟

إنه ما دام الرسول كان رسول الله للعالمين، وكان دينه شرعا للعالمين سواء كانت نظما سياسية أم اجتماعية؟

لماذا لا يطمح الإسلام إلى "حكومة عالمية" تلتف حول مبادئه

وكتابه..؟

لقد تحققت نبوءة الرسول التى تنبأ بها يوم الخندق.. وخلال خمسة وعشرين عاما دانت الجزيرة العربية كلها للإسلام ودخل تحت مظلة دولته الكبرى معظم بلاد وتخوم الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ثم توالى الفتح بعد ذلك حتى صارت القوة والزعامة الإسلامية طوال مائتى سنة هى القوة الأولى فى العالم كله.

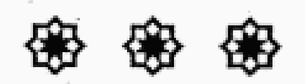
أجل - بين عامى ٨٥٠،٦٥٠ ميلادية كانت الدولة الإسلامية أقوى وأعظم دولة فى العالم.

وفى أقل من ثمانين عاما شملت الفتوحات الإسلامية من الأرض والبلاد أكثر من تلك التى ضمتها روما فى ثمانمائة عام..!!

ولم تكن فتوحات الإسلام غاشمة ولا ظالمة، بل كانت رحمة وهداية وسلاما.. كانت حروب تحرير وتمدين. وليس أدل على ذلك من أنه بعد تفكك الدولة الإسلامية ظل المسلمون قادة الفكر والعلم فى العالم لمدة خمسة قرون.

كما أنها لم تكن فتوحات عنصرية،، فإن الكثيرين من أبناء الدول المفتوحة كانوا يصلون إلى أعلى مناصب الدولة. وعندما ترك المسلمون أسبانيا - مثلا - لم يتركوها مهلهلة منهوبة، بل تركوها امبراطورية عظمى بفضل ما كانوا قد أسدوا إليها من حضارة وعمرانْ وثقافة..

أو كل ذلك، ثم نقول: الإسلام دين لا دولة..؟إذن فماذا كان كل هذا الفتح العظيم والطود الشامخ؟؟



٤

لقد كانت تصرفات الرسول تومئ إلى رجل ينشر دعوة ويبنى دولة فهو يشكل الجيوش ويجعل عليها أمراءها، وهو يعقد المعاهدات، ويرسل السفارات، ويجمع الضرائب - زكاة وجزية - وحين يغادر المدينة عاصمة الدين والدولة يختار أميرا يخلفه فيها ويقوم إداريا وسياسيا ودينيا بكل مهام الرسول عليه السلام، ولقد قام الرسول فى المدينة بكل مسئوليات النبى والحاكم، واستمر ذلك من بعده بدءا من يوم السقيفة..

من أجل هذا، أجمع المسلمون - أهل السنة، والمعتزلة، والشيعة، والمرجئة، والخوارج إلا قلة ضئيلة عرفت باسم "النجدات" أجمعوا جميعا على وجوب نصب "الإمام" أى قيام "الدولة" التى ترعى شئون الإسلام والمسلمين.

والإسلام وإن يكن دينا شرعه الله سبحانه إلا أنه فى تطبيقاته الإنسانية يمثل "عقدا اجتماعيا" يتضمن قيام سلطة تفى بالتزامات هذا العقد، وتسهر على تنفيذه.

والمبادئ والتنظيمات التى تلبى كل احتياجات الناس، والتى أثراها "الفقه الإسلامى" وتفسح فى تبيانها تتطلب شرعا وعقلا وبداهة

قيام "سلطة" تؤمن بهذا التراث وتلتزم باحترامه وتنفيذه.

والإسلام يقيس نوع السلطة بنوع قيمه ومبادئه، فهو لا يقبل أى سلطة تفرضها ظروف مجافية لمبادئه، بل لا بد أن يتوفر لهذا السلطة من العدل واحترام الشريعة ما يجعلها جديرة بكونها سلطة إسلامية.

من أجل هذا عرف الفقهاء المسلمون رئيس الدولة المسلمة بأنه "يقوم بأمر الحرب والسلم، وتدبير الجيوش والسرايا وسد الثغور، وحماية الأمة، والأخذ من ظالمها لمظلومها، والقيام بكل مصالحا ومهامها السياسية".

ومن أجل هذا أجمع الفقهاء كما أسلفنا على وجوب قيام الدولة المسلمة.

يقول ابن خلدون:

"إن نصب الإمام واجب قد عُرف وجوبه فى الشرع بإجماع الصحابة والتابعين".

ويقول حجة الإسلام الغزالى:

"الدين والسلطان توأمان".

ويقول النسفى فى عقائده:

"والمسلمون لابد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحامكهم، وإقامة حدودهم، وسد ثغورهم، وتجهيز جيوشهم، وجمع الزكاة المفروضة عليهم، وقهر المتلصصة وقطاع الطريق، وإقامة الجمع والأعياد، وقطع المنازعات القائمة بين العباد".

ويقول الإمام الغزالى أيضا مبينا حاجة الدين والدنيا إلى الإمام

أى الدولة:

"ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن، ولعمرى من أصبح آمنا فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها".

"فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه الضروريات. ومن قضى جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، فمتى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة".

" إن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينتظمان إلا بسلطان مطاع، وهذا تشهد له أوقات الفتن.. فما لم يُتدارك الأمر بسلطان مطاع لدام الهرج وعم الشغب وشمل القحط، وهلك الناس وبطلت الصناعات وصار كل من غلب سلب، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم إن بقى حيا، والأكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف، ولهذا قيل: الدين أساس والسلطان حارس، ومالا أساس له فهو مهدوم، ومالا حارس له فضائع"[١].

وقال الماوردى:

"..ويحب إقامة إمام يكون سلطان الوقت وزعيم الأمة، ليكون الدين محروسا بسلطانه، والسلطان جاريا على سنن

---

[١] كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد.

الدين وأحكامه".

وقال الشهر ستاني:

"ولابد للكافة من إمام ينفذ أحكامهم، ويقيم حدودهم، ويحفظ بيضتهم ويحرس حوزتهم، ويعبئ جيوشهم، ويقسم غنائمهم ويتحاكمون إليه فى خصوماتهم، وينصف المظلوم وينتصف من الظالم، وينصب القضاة والولاة فى كل ناحية، ويبعث القراء والدعاة إلى كل طرف"(١).

وقال الايجى صاحب المواقف:

"إنا نعلم علما يقارب الضرورة أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود والمقاصات وإظهار شعار الشرع فى الأعياد والجمعات - إنما هو مصالح عائدة إلى الخلق معاشا ومعادا. وذلك لا يتم إلا بإمام يكون من قبل الشرع يرجعون إليه فيما يعن لهم"(٢)

ويقول الجرجاني:

"نصب الإمام من أتم مصالح المسلمين، وأعظم مقاصد الدين".

ويقول ابن تيمية:

"يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بنى آدم لا تتم

---

(١) نهاية الإقدام فى علم الكلام نقلا عن كتاب النظريات السياسية الإسلامية.

(٢) المرجع السابق.

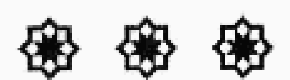
مصلحتهم إلا بالاجتماع بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من الحاجة إلى رأس. حتى قال النبى ﷺ "إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم".

"ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل، وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم وإقامة الحدود.. وكل ملك لا يتم إلا بالقوة والإمارة.

"ولهذا روى أن "السلطان ظل الله فى الأرض"..

وكان السلف الصالح كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وغيرهما يقولون:

"لو كانت لنا دعوة مستجابة لادخرناها للسلطان"..[1]



---

(١) السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية.

٥

وإجماع المسلمين هذا على ضرورة قيام الدولة المسلمة مستمد مما انتظمه القرآن والسنة من آيات وتوجيهات، ومن نهج الخلفاء الراشدين الذين قال الرسول عنهم:

"عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى.
عضوا عليها بالنواجذ".

كما أنه مستمد بعد ذلك من حركة الإسلام خلال التاريخ الطويل

أما عن القرآن، فالقرآن مملوء بالآيات التى تدعو المسلمين إلى حكم الله.

والفعل ـ حكم جاءت مشتقاته فى القرآن بمعنى "الحكومة" التى تقضى وتفصل وتقود.. وجاء بمعنى "الحكمة" .. وجاء بمعنى الإحكام والإتقان.. وجاء بمعنى الغلبة والاقتدار.. فلا يجوز الخلط بين هذه المعانى، ولا يجوز مثلا حمل آيات الحكم على معانى الحكمة أو الإحكام، أو الاقتدار، لأن معنى الحكم فيها واضح ومبين.

فمن آيات "الحكمة" قوله تعالى:

﴿ وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾

﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَيكُم مِنَ الكِتَابِ وَالحِكمَةِ ﴾

﴿ آتَينَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾

﴿ وَأَنْزَلَ اللهُ عَليكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾

﴿ ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبكَ بِالحِكْمَة﴾

﴿ ذَلِكَ مِمَا أَوحَى إِليكَ رَبُّك مِن الحِكمَة﴾

﴿ وَلقَد آتَينَا لُقمَانَ الحِكْمَةِ ﴾

﴿ وَاذكُرن مَا يُتلَى فِى بُيوتِكُن مِن آيَاتِ اللهِ وَالحِكمَة﴾

﴿ وَشَدَدنَا مُلكَه وَآتَينَاه الحِكمَةَ وَفَصْلَ الخِطَاب﴾.

من آيات "الإحكام" والغلبة قوله سبحانه:

﴿ قَالُوا سُبحَانَكَ لا عِلمَ لَنا إِلا مَا عَلَمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ العَليم الحَكيم﴾

﴿ فَاعْلَموا أَن اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾

﴿ وَلَو شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُم إِن اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾

﴿ هُوَ الذِى يُصَوِرُكُم فِى الأَرْحَامِ كَيفَ يَشَاء لا إِلهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم﴾

﴿ ثُم ادْعُهُن يَأتِينَك سَعْيًا وَاعْلَم أَن اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِن عِندِ اللهِ العَزِيز الحَكِيم ﴾

﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِه وَهُوَ الحَكِيم الخَبير﴾

﴿ وَكَلِمَةُ اللهِ هِى العُليَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيم..﴾

فى هذه الآيات الكريمة يتحدث القرآن عن الحكمة بمعناها.. وعن الاحكام بمعناه.. وعن الغلبة والاقتدار بمعنيهما.

أما لفظ الحكم بمعنى القضاء والفصل وبمعنى الحكومة أيضا فقد

ذكره القرآن ستا وسبعين مرة [1] وحسبنا هنا إيراد بعض الآيات التى تشير بوضوح إلى أن الإسلام له دولته التى تحكم بما أنزل الله والتى تجعل العدل شرعتها ومنهاجها.

يقول القرآن العظيم:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيكَ الكِتَابَ بِالحَقِ، لِتَحْكُمَ بَينَ النَاسِ بِمَا أَرَاكَ الله ﴾

فالقرآن لم ينزل على قلب الرسول ليتعبد به المؤمنون فحسب بل وليكون ـ أولا ـ منهجا للحكم يحكم به الرسول أمته المسلمة بما أراه الله، أى بما رسم له فى هذا القرآن من سبيل وما قنن فيه من قانون.

ويؤكد القرآن هذا الدور لرسول الله قائلا:

﴿ فَاحْكُم بَينَهم بِمَا أَنْزَلَ الله ﴾

﴿ وَأَن احْكُم بَينَهُم بِمَا أَنْزَلَ الله وَلا تَتَّبِع أَهْوَاءَهم ﴾..

ثم يؤكد له ضرورة الالتزام بحكم الله فيقول:

﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾..

وليس هذا الخطاب قاصرا على الرسول ﷺ، بل هو دعوة مفتوحة لكل مسلم يلى أمر المسلمين.

يقول الله تعالى:

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾..

---

[1] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لطيب الذكر المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى.

والأمانات هنا لا تعنى تلك الودائع التى يستودعها بعضنا بعضا فحسب بل تعنى - أولا - مسئولية الحكم التى هى أمانة ائتمن الله عليها الحاكمين.

وأداؤها إلى أهلها يعنى العدل فى تنفيذها والقيام بها، كما يعنى إشراك الشعب فى هذه المسئولية بكل الوسائل التى تجعل مشاركته فى الحكم مشاركة فعالة وحقيقية.

والحكم بما أنزل الله وبما شرع لعباده، وبناء الدولة التى تلتزم هذا النهج كان من بين وظائف الرسول عليه السلام.

ولم ينزل الله كتابه لنلهو به، بل هو ينقل إلينا حكم الله الذى ارتضاه للناس، ولا يرضى بغيره بديلا عنه.

يقول سبحانه:

﴿ وَاللهُ يَحكُم لا مُعَقِب لِحُكمِه ﴾..

ليس هناك من يفرض رأيه على حكم الله مهما تكن عبقريته وقوته.

ويؤكد العلى الكبير هذا المعنى فى هذه الآيات الكريمة:

﴿ ذَلِكم حُكمُ الله يحكم بَينَكُم﴾

﴿ إنِ الحُكمُ إلا لله، يَقض الحَق وَهُوَ خَيرُ الفَاصِلين﴾

﴿ ألا لَهُ الحُكْم ﴾

﴿إنْ الحُكمُ إلا لله، أمَرَ ألا تَعبُدُوا إلا إيَاه ﴾

﴿ إنْ الحُكمُ إلا لله عَلَيه تَوَكلت، وَعَلَيه فَليَتَوَكلِ المُتوَكِلُون﴾.

ويرفض القرآن ويدحض كل افتيات على حكم الله وكل عدول عنه

إلى حكم وضعي مريج، فيقول:

﴿ وَمَن لَم يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُم الكَافِرُون﴾

﴿ وَمَن لَم يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَالِمُون ﴾

﴿ وَمَن لم يحكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُم الفَاسِقُون ﴾..

ويوبخ القرآن أولئك الذين ينحرفون عن حكم الله إلى حكم البشر

﴿ أَفَحُكم الجَاهِلِية يَبغُون وَمَن أَحْسَن مِن اللهِ حُكمًا لِقَومٍ يُوقِنُون ﴾..؟!

ويضع حدا فاصلا بين المؤمنين المخبتين الذين أذعنوا لحكم الله وارتضوا تشريعه وقانونه، وبين الضالين الذين عموا وصموا عما أنزل الله من كتاب..

فيقول عن الأولين:

﴿ إنَّمَا كَانَ قَوْلُ المُؤمِنِين إِذَا دُعوا إِلى اللهِ وَرَسُولِه لِيَحكُم بَينَهم أَن يَقُولُوا: سَمِعْنَا وأَطَعْنا ﴾.

ويقول عن الآخرين:

﴿ وَإِذَا دُعوا إِلى اللهِ وَرَسُولِه لِيَحْكُم بَينَهم إِذَا فَرِيقٌ مِنهُم مُعرِضُون ﴾.

ويعلم الرسول أن يقول لأولئك المعارضين والمعترضين:

﴿ أَفَغَيرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا، وَهُوَ الذِي أَنزَلَ إِلَيكُم الكِتَابَ مُفَصلاً﴾.

أجل..كيف يبتغي المؤمنون حكما غير حكم الله وهو الذي أنزل

إليهم كتابا مفصلا ومحكمًا وتبيانا لكل شيء، وأرسل إليهم خاتم أنبيائه ورسله يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويدعوه ويدعوهم بقوله:

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُم فِيهِ مِن شَيء فَحُكْمُه إِلى الله ﴾.

إن هذه الآيات التي سلفت، يكشف القرآن بها عن أن للإسلام دورًا غير هداية الناس، هو دور الحكم والحاكم الذي يحمي ديارهم وينظم حياتهم عن طريق دولته التي يجب أن تقوم وأن تبقى ما بقي في الدنيا إسلام.

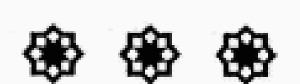
ودستور هذه الدولة ماثل في كتاب الله، وسنة الرسول، وإجماع الأمة..

وإجماع الأمة يتشكل وفق ما في القرآن والسنة من أحكام.

﴿ يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعوا الله وَأَطِيعُوا الرَسُولَ وَأُولِي الأَمرِ مِنْكُم فَإِن تَنَازَعْتُم فِي شَيءٍ فَرُدوه إِلى الله وَالرَسُول.. ﴾

والقرآن في الدولة المسلمة هو أبو القوانين فيها، وسنتحدث عن هذا الموضوع إن شاء الله عند حديثنا عن شكل الدولة المسلمة وكيف تنهض وتقوم.

أما الآن وقد تلونا الآيات القرآنية التي تعلمنا أنه لابد للإسلام من إمام يحكم ودولة تقوم، فلنتجه صوب السنة النبوية لنطالع رأيها في هذه القضية.



٦

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الخاصة بقيام الدولة فى الإسلام، لا نلتقى بآية ولا بحديث يقول: يا أيها الذين آمنوا أقيموا دولة أو اتخذوا منكم إماما وحاكما، تماما كما لا نلتقى بآية تقول أو بحديث يقول: يا أيها الذين آمنوا تنشقوا الهواء..!! ذلك أن القضية من البداهة بحيث لا تتطلب أمرا بها ودعوة إليها إنما يتجه القرآن وتتجه الأحاديث النبوية مباشرة إلى الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها وعن المسئوليات المتبادلة بينها وبين الأمة.

إن قيام دولة فى أى أمة أمر بدهى تتطلبه طبائع الأشياء وتقتضيه سنن الاجتماع البشرى .

وهذا ما أدركه الإمام على بفطرته وذكائه حين قال:

"لابد للناس من إمارة ـ برة كانت أو فاجرة..

قيل: يا أمير المؤمنين، هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة..؟؟

قال: يقام بها الحدود.. وتؤمن بها السبل.. ويجاهد بها العدو.. ويقسم بها الفيء.."

فقيام الدولة أيا كان لونها أمر ضرورى بقدر ما هو بديهى.

وإنما كان اهتمام القرآن والسنة بالنهج الذى تقوم عليه الدولة فى الإسلام - أى بمميزات وخصائص وسمات الدولة المسلمة. فإذا قال القرآن للرسول ﴿ احْكُم بَيْنَهُم ﴾ فإنه يتبعها بقوله ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾.. وإذا قال له ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أتبعها بقوله ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾.

ومعنى هذا أن الإسلام ينشد نوعا معينا من الدول والحكومات. هو الذى يلتزم بتعاليمه ومبادئه وتقاليده.

وتعالج أحاديث الرسول الأكرم الموضوع بشمول ووضوح. ولنبدأ بهذا الحديث العجيب.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من مات وليس له إمام، مات ميتة جاهلية".

والمراد بالإمام فى الإسلام إذا أطلق، "الحاكم" أى "الدولة" فأى توكيد لدورها، بل أى تقديس أكثر من هذا الذى نرى؟!

لا يحق لأى إنسان رشيد أن يعيش فى الفلاة كالحمر الوحشية ليس له مجتمع يؤويه ولا دولة تحميه.. ومهما يبالغ المسلم فى الفرار بدينه من الفتن، فلابد أن يكون له انتماء يربطه بأمته ودولته، وإلا عاش آبقا، ومات - كما قال الرسول - ميتة جاهلية.

إن الدين الذى يقول رسوله هذا الحديث لا يمكن أن يتجاهل قيام الدولة. بل لابد أن تكون الدولة أصلا من أصوله الراسخات.

ثم لنطالع هذا الحديث للرسول عليه السلام:

"كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء عليهم السلام كلما هلك نبى خلفه نبى.. وأنه لا نبى بعدى، وسيكون بعدى

خلفاء فيكثرون..

قال أصحاب الرسول: فما تأمرنا؟؟

قال: أوفوا بيعة الأول.."

فهنا يحفظ الرسول الدولة المسلمة من الانشقاق والتصدع، ويبين أنها ثمرة "البيعة" و "الشورى" بدليل قوله عليه السلام "أوفوا بيعة الأول".

ولكأنما كان الرسول يقرأ ويطالع مستقبل الدولة المسلمة، وما ستتعرض له من فتن واختناقات. بل لقد طالع هذا المستقبل فعلا حين قال:

"الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك".

يقول الصحابى راوى الحديث "لقد حسبنا خلافة أبى بكر وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة على فوجدناها ثلاثين سنة".

ويأمر الرسول باحترام بيعة الأمة للخليفة الذى تختاره بكامل مشيئتها ويدعو إلى رفض من نازعه الأمر بغير حق وسلطان ويحكم بتجريمه بل بقتله.. يقول عليه السلام:

"من أتاكم وأمركم جميع على رجل يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه"!!

ومرة أخرى نلفت النظر إلى قوله عليه السلام "وأمركم جميع" أى أن الإمام القائم ثمرة إجماع من الأمة على تنصيبه واختياره.

وتقوم الدولة بكل مسئولياتها تجاه الأمة.

يقول عليه السلام:

"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. فالإمام راع ومسئول

عن رعيته.."

والحاكم المسلم يكرس حياته لخدمة الأمة وإصلاح حالها وأمرها وهو لهذا لا يغيب قط عن قضاياها ومشكلاتها.. بل لا يغيب عن حاجة أى فرد من أفرادها.

يقول عليه السلام:

"من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة"..

والحاكم عادل ومقسط:

"إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا".

والدولة المسلمة لا تخدع الأمة ولا تغشها ولا تعاملها بظاهر جميل يخفى باطنا قبيحًا.

يقول عليه السلام:

"ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة".

والحاكم المسلم وجميع ولاته على الأقاليم مسئولون أمام الله ثم أمام الناس عن سلوكهم، وعن مدى التزامهم بتعاليم الإسلام الحنيف.

والحاكم مسئول عن ولاته الذين يجب أن يختارهم وفق رأى الإسلام فيهم، لا وفق هواه.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهـو يجـد مـن هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مؤكدا معنى الحديث:

"من ولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلا لمودة أو قرابـة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين".

يقول الإمام ابن تيمة[1]:

"ويجب علـى كـل مـن ولـى شـيئًا مـن أمـر المسـلمين أن يستعمل فيما تحت يده فى كل موضع أصلح من يقدر عليـه. ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية، بـل يكـون ذلـك سـبب المنع."

"فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينـهما أو صداقة أو موافقة فى بلد أو مذهـب أو طريقـة أو جنـس كالعربية والفارسية والتركية والروميـة، أو لرشـوة يأخذهـا منه، أو غير ذلـك مـن الأسـباب، أو لضغـن فـى قلبـه علـى الأحق والأصلح، أو عداوة بينهما، فقـد خـان الله ورسـوله والمؤمنين، ودخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُم وَأَنتُم تَعلَمُونَ ﴾."

---

[1] السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية.

"..إن الوالى الذى يؤدى الأمانة مع مخالفة هـواه يثبتـه الله ويحفظه فى أهلـه ومالـه بعـده.. والمطيـع هـواه يعاقبـه الله بنقيض قصده، فيذل أهله، ويذهب ماله".

"..قال بعض الناس لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيـز: يـا أمير المؤمنين أفغرت ـ أقفرت ـ أفواه بنيك من هـذا المـال وتركتهم فقراء لا شيء لهم، وكان فـى مـرض موتـه. فقـال: أدخلوهم على، فأدخلوهم فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال: يا بنى، والله ما منعتكم حقا هو لكم وما كنـت لآخـذ أمـوال الأمة فأدفعها إليكم.. وإنما أنتم أحد رجليـن إمـا صـالح، فالله يتولى الصالحين.. وإما غير صالح فلا أخلف لكـم مـا تستعينون به على معصية الله.."

ثم يقول ابن تيمية رضى الله عنه:

"فبارك الله له فى ولده وأغناهم حتـى أن أحدهـم تـبرع فـى إحدى الغزوات مع الروم بمائة فرس للمجاهدين."

"حدث هذا من عمر بن عبد العزيز وهـو خليفـة المسـلمين مـن أقصـى المشـرق ببـلاد الـترك إلـى أقصـى المغـرب بالأندلس.. ومـن جزيـرة قـبرص وثغـور الشـام إلـى أقصـى اليمن.. ولقد كان نصيب كل من أبنائـه مـن تركتـه وميراثـه أقل من عشرين درهما."

"بينما كان هناك أحد الخلفـاء، اقتسـم بنـوه تركتـه فكـان

نصيب كل فرد منهم ستمائة ألف دينار.. ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء الأبناء يتكففون الناس بعد ما أصابهم من فقر وفاقة"..

أجل ـ الحاكم وولاته مسئولون عن الأمة..

والأمانة والتعفف هما مقياس صلاحية الحاكم والولاة. والذين تصلهم بأموال الناس وظيفة ومنصب فإن مسئوليتهم عن الأمانة تفوق كل تقدير..

إن الذى يرى الرسول وهو يواجه خيانة من مال الشعب أو سفها فى إنفاق ليرى أمرا عجبا.

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذى طالما التمس المعذرة ورجا رحمة الله للخطائين يقف أمام الخيانة أو التجوز فى مال الأمة وكأنه لا حيلة له أبدا. ولأول مرة نراه يستحى أن يسأل ربه المغفرة لآثم، ذلك لأن الآثم هذه المرة خائن، خان مال الأمة وهو عند الله إثم مبين.

أهدى رفاعة بن زيد للرسول عليه السلام خادما.. وفى غزوة وادى القرى أصابه سهم وهو ينزل رحل الرسول، فأقبل الصحابة على الرسول يعزونه، ويقولون: هنيئا له يا رسول الله فقد مضى شهيدا فأجابهم الرسول قائلا:

"وما يدريكم..؟ إن الشملة التى أخذها من المغانم يوم خيبر، لتشتعل عليه نارا"..

شملة.. شمله تساوى درهما أو بضعة دراهم يطارد إثمها آخذها حتى وإن مات شهيداً.

ألا إنه لولاء للأمانة ليس له نظير..!!

إن كل قرش يناله والٍ أو موظف أو حاكم خلسـه أو جـهرة دون أن يكون له فيه حق لهو غلول وخيانة.

يقول الرسول عليه السلام:

"من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقا، فما أخذ بعـد ذلـك فهو غلول".

إن العلاقة بين الوالـى والأمانـة تبلـغ فـى أحـاديث الرسـول عليـه الصلاة والسلام مبلغا عظيما من التقديس.. فهو ـ مثـلا ـ يرفـض رفضـا مطلقا أن يقبل الوالى أو الموظف هدية ـ مهما تكن ـ جـزاء عمـل أداه يدخل فى نطاق واجبات ولايته ووظيفته، إن هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة والتفريط فى الحقوق العامة.

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم وقال:

"أما بعد، فإنى استعمل الرجل منكم على عمل مما ولانى الله.

فيأتى ويقول: هذا لكم، وهذا أهدى إلى..

هلا جلس فى بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا.؟"

"والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة.. اللهم قد بلغت"..!

إن الرسول ليتحـدث عـن "أمانـة الحكـم" باهتمـام عظيـم، ويلقـى تعاليمه الهادية المضيئة إلى الحكام، والولاة، والقضاة، وإلـى كـل مـن يحمل مسئولية فى الدولة.

يقول عليه السلام عن الإمارة:

"إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذهـا

بحقها، وأدى الذى عليه فيها ".

ولأن الحكم "أمانة" ومسئولية عظمى لا يتهالك عليها إلا جاهل بفداحتها، ولقد كان الرسول يرفض أن يولى أحدا ولاية أو إمارة يسألها ويرنو إليها.

ذهب أحد أصحابه يومًا يسأله أن يوليه إحدى الولايات، فقال:

"إنا والله لا نولى هذا الأمر أحدا يسأله أو أحد يحرص عليه"..!!

ويوصى عبد الرحمن بن سمرة قائلا:

"يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن سألتها وُكِلت إليها.. وإن أعطيتها بغير مسألة أعنت عليها"[١].

قد يكون رفض الحكم أمرا ميسورا للرجل الورع، لكن الصعب بالنسبة إليه هو تقلد الحكم، وتحمل مسئولياته الشداد.

ومن المريح لك أن تضع عن كاهلك الحمل الثقيل الذى يؤود الاشداء من الرجال، ولكن الصعب جدا أن تحمله وتمضى به السنوات الطوال..

لذلك لا نجد المتهافتين على السلطة إلا من بين النهمين لشهوات الدنيا من منصب ومال وجاه والفارغين عقولا وأفئدة.

ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة يتمثل فى قول الإمام على كرم الله وجهه:

"أما والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، ولولا ما أخذ الله على

---

(١) راجع كتابنا ـ كما تحدث الرسول.

العلماء إلا يقاروا على كظة ظالم، وسغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، وسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز"..!!

وكان يوما يخصف نعله ومعه ابن عمه عبد الله بن العباس، فسأله الإمام على:

- ما قيمة هذه النعل؟؟

قال ابن عباس: لا قيمة لها..

قال الإمام: والله لهى أحب إلى من أمرتكم، إلا أن أقيم حقا، أو أدفع باطلا..!!

* * *

واختيار الدولة لولاتها يجب أن يتم وفق مقاييس الإسلام المتمثلة فى أن يكون الوالى كفؤا وعدلا وصادقا وأمينا.. ولاة ينصحون الدولة ولا يغشونها، يواجهون الحاكم ولا يتملقونه، يخلصون للحق ويجعلون ولاءهم له من دون الناس.

يقول الرسول عليه السلام:

"إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق: إن نسى ذكره.. وإن ذكر أعانه..

"وإذا أراد به غير ذلك، جعل له وزير سوء: إن نسى لم يذكره.. وإن ذكر لم يعنه".

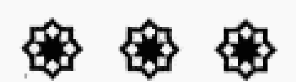
إذن فاختيار الولاة الأكفاء من صالح الحاكم قبل أن يكون من صالح الأمة، والحاكم الذكى، والوالى الذكى أيضا هو الذى لا يبيع

دينه بدنيا غيره..

إن الدولة تقف بكل مؤسساتها على الهوة الفاغرة والمنزلق الوعر إذا هى اسندت أمورها لغير الأكفاء والأمناء.. وإذا هى آثرت المنافقين والجبناء.

وإذا كان اختيار الولاة الصالحين واجب الحاكم، فإن اختيار الحاكم الصالح واجب الأمة.

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن شكل الدولة المسلمة وكيف تتشكل وتقوم.



٧

إذا ألقينا نظرة على العالم حوالينا ألفينا الدولة فى كل بلد انعكاسا للمبادئ والنظريات السياسية التى يمارسها ذاك البلد.. وتتحكم الأوضاع الاقتصادية إلى حد كبير فى تشكيل نوعية الدولة، ورسم خصائصها.

والدولة المسلمة لا تخرج عن هذه القاعدة، فهى انعكاس لمبادئ الإسلام وقواعده وخصائصه.

وأول ما يواجهنا ونحن نتحرى هذه الخصائص والمبادئ، مبدأ الشورى..

فالإسلام دين الشورى بكل ما تحمله الكلمة من معنى وشمول وبالتالى فإن شكل الدولة القائمة باسمه المستظلة برايته لابد أن يكون "شوريا" وقد تنزل القرآن على الرسول يأمره أمرا واضحا وواجبا أن يدبر أمور أمته عن طريق الشورى فيما لم يأت القرآن فيه بحكم صريح.

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه:

﴿ فِبمَا رَحْمَة مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُم. وَلَو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِن حَولِك. فَاعْفُ عَنهُم، وَاستَغفِرْ لَهُم، وَشَاوِرْهُم فِى

الأَمْر.. فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّل عَلى اللهِ ﴾.

ويلفت الإمام الرازى أنظارنا إلى معنى رائع تعطيه هذه الآية الكريمة. ذلك أنها نزلت فى أعقاب "غزوة أحد" تلك الغزوة التى لم يكن النبى يرى فيها الخروج من المدينة لملاقاة قريش خارجها. بيد أن الأغلبية من أصحابه رأوا غير ما رأى، فنزل النبى على رأيهم، وخرج على رأس جيشه لملاقاة جيش الشرك ودارت الحرب عند جبل أحد، وحدث فيها ما حدث للمسلمين من محن شداد.

فى أعقاب هذا الذى حدث نزلت الآية الكريمة تقول للنبى عليه السلام:

"وشاورهم فى الأمر".

أى لا تجعل ما ظهر من خطأ رأيهم سببا لتجنبك الشورى، فإن الخطأ مع الشورى أسلم من الصواب مع التفرد بالرأى..!!

وهذا الموقف بين الله ورسوله لا غرابة فيه ولا عجب، مادام الرسول إنما بعث ليعلم الناس ويهديهم سواء السبيل.. إن سواء السبيل هنا وفى هذا المجال هى الشورى التى لا تعرف الملل ولا الاستعلاء.

أجل.. نزل الوحى عليه بعد ما حدث له ولعمه حمزة ولأصحابه بسبب الشورى ما حدث. نزل ليأمره بالمزيد من الشورى..!!

ولقد حذق الرسول الكريم الدرس الذى لقنه الوحى إياه، فعاش يقدس الشورى فى كل أمر، ويرسخ ذلك فى روع أصحابه.

فيقول لهم:

"ما تشاور قوم قط إلا هُدُوا لأرشد أمرهم".

ويصفه صاحبه أبو هريرة رضى الله عنه فيقول:

"لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ".

ولقد مضى سلوك الرسول على هذا النهج من الاهتمام بالشورى وإخضاع كل قراراته لها حتى في أشد المواقف وأكثرها حرجا وتجهما..

ولنضرب لهذا مثلا آخر:

في غزوة "الخندق" وهي تكاد تكون أخطر الغزوات التي واجهها الرسول والمسلمون، إذ أقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كنانة وتهامة في عشرة آلاف مقاتل شديدي المراس ومعهم يهود بني النضير، ومن الداخل كان هناك يهود بني قريظة نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ وانضموا إلى الغزاة.

ويكفي في تصوير هذا الموقف الرهيب أن نستمع لكلمة القرآن فيه:

﴿ إِذْ جَاءوكُم مِن فَوقِكُم، وَمِن أَسْفَلَ مِنْكُم وَإِذ زَاغَت الأَبْصَارُ، وَبَلَغَت القُلُوبُ الحَنَاجِر، وَتَظُنُونَ باللهِ الظُنُونا. هُنَالِك ابتُلِيَ المُؤمِنُونَ وَزُلزِلوا زِلزَالاً شَدِيدًا ﴾..!!

في هذا الموقف الصاعق رأى النبي أن يقلل من عدد مهاجميه وذلك بأن يصرف "غطفان" عن هذه الحرب وعن حلفها مع قريش، وفكر عليه السلام أن يرسل إلى قائدي غطفان، ويعرض عليهما ثلث ثمار المدينة وغلتها على أن ينسحبا من الجيش المهاجم ويرجعا بقومهما.

وفي هذا الهول لم ينس الشورى، فعرض الأمر على سادة الأوس والخزرج في المدينة فأبوا هذا الصلح واعتبروه إذلالا لهم وهوانا فنزل عليه السلام عند رأيهم مسلما أمره إلى الله ومترقبا بركة الشورى.. ولقد

كانت مباركة حقا، فقد هزم اليأس جيش قريش وحلفائها، وسخر الله ريحا وعواصف اقتلعت خيامهم وأطفأت نارهم وكفأت قدورهم وأذهلتهم عن أنفسهم فصاح فيهم "أبو سفيان" صيحة الفرار والخذلان واليأس وانقلبوا إلى مكة صاغرين.

* * *

وكان عليه السلام يقول لأبى بكر وعمر:

"لو ذهبتما لرأى ماخالفتكما".

ليس احتراما للشورى وحسب. بل ولأن الشيخين أصبحا بصوتهما يشكلان أغلبية تجاه الصوت الواحد، وإن يكن صوت الرسول ﷺ ..!!

ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من أثمن خصال المؤمنين وصفاتهم. قال تعالى:

﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيرٌ وَأَبْقَى لِلذِين آمَنُوا، وَعَلى رَبِّهِم يَتَوكَلُون.. وَالذِين يَجْتَنِبون كَبَائِر الإِثم وَالفَوَاحِش، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُم يَغفِرون.. وَالذِينَ استجَابُوا لِرَبِهِم وَأَقَامُوا الصَلاة، وَأَمْرَهُم شُورَى بَينَهُم، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُون ﴾..

ولقد أخذ الخلفاء الراشدون بواجب الشورى فى حزم ويقين.

ويحدثنا "ابن القيم" نقلا عن التابعى الكبير "ميمون بن مهران" أنه قال:

"كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به.. وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة

رسول الله ﷺ ، فإن وجد ما يقى به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل النـاس: هل علمتم أن رسول الله قضى فيه بقضاء، فربما قام إليه القـوم فيقولـون: قضى فيه بكذا، وكذا .. فإن لم يجد سنة سـنها رسـول الله جمع رؤسـاء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به، وكان ـ عمر ـ يفعل ذلك.."[١]

فحكومة أبي بكر وعمر لم تكن كما يتصور البعض حكومـة "مستبد عادل" .. ولقد عرضت لدحض هذا الرأي في مقدمـة كتـابي "وجـاء أبـو بكر"، قلت: إن الذين يرون في أبـي بكـر وعمـر مسـتبدين عـادلين إنمـا يجانبون الصواب.

أولا: لأنهما لم يكونا مستبدين ساعة من نهار.

وثانيا: لأنه ليس هناك شيء اسمه "المستبد العادل".

فالاستبداد والعدل ضدان لا يجتمعـان ونقيضـان لا يلتقيـان، وأن أحدهما ليختفي فور ظهور الآخر، لأن أبسط مظاهر العدل أن يأخذ كل ذي حق حقه.. وإذا كان من حق الناس ـ وهذا مقرر بداهة ـ أن يختـاروا حياتهم وحكامهم، ويقرروا مصايرهم، فإن ذلك يقتضي في نفس اللحظـة لنفس السبب اختفاء الاستبداد.

ولقد كان "أبو بكر، وعمر" رضي الله عنهما علـى بصيرة مـن هـذا وعلى الرغم من أنهما والأمة معهما كانا خاضعين خضوعـا مطلقـا لمـا أنزل الله من كتاب فقد أتاحا للمسلمين كل فرص المناقشـة والمعارضـة والاختيار.

---

(١) أعلام الموقعين جـ١ .

ربما يذهب الظن بالبعض إلى أن "أبا بكر، وعمر" لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لأنه لم يجاورهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمان ودستور ومعارضة وصحافة حرة.

بيد أن وضع المسألة على هذا النحو يشكل خطأ كبيرًا.. وإنما يستقيم الفهم إذا نحن أجبنا عن هذا السؤال:

ـ هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية التى عرفها العالم حديثا، هل كان غيابها عن الدولة المسلمة يومذاك راجعا إلى كفران الخليفتين بهذه المؤسسات؟!

والجواب بيقين: لا ـ وغياب هذه المؤسسات لا يعنى أكثر من كونه تعبيرا عن نظم ذلك العصر البعيد فى جزيرة العرب بل وفى معظم بلاد العالم منذ ألف وأربعمائة عام.

لقد حقق الخليفتان على أوسع مدى الجوهر الحى للديمقراطية من خلال إيمانهما العميق بكرامة الإنسان، ومن خلال الأشكال والتطبيقات التى كانت تلائم عصرهما.

- فإذا كانت الدولة المسلمة فى عهديهما لم تشهد قيام معارضة برلمانية منظمة لفقدان ذلك فى بيئتهما وعصرهما، فإن المعارضة نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال وعميم.
- وإذا كانت الدولة يومئذ لم تشهد قيام برلمان يراقب الحاكم ويشرع القوانين، فإن الشورى يومئذ كانت شعيرة من شعائر الله، وكانت حقا مقدسا للجماعة كلها.
- وإذا كان التطور يؤمئذ لم يهيئ قيام صحافة حرة، فإن الكلمة الصادقة الشجاعة كانت على كل لسان، يصغى الخليفة إليها، ويثيب

عليها ..!!

ولو أن الخليفتين العظيمين "أبا بكر، وعمر" يحكمان فى عصرنا هذا لأعطيا التجربة الإنسانية فى النظام الديمقراطى الرشيد كل احترامهما، ولانتفعا بها إلى أبعد مدى، ولأخذا من أشكالها الحديث ما يحقق جوهرها ويعبر عن خصائصها.

صحيح أن ذلك لم يكن سيتم بصورة مطلقة. بل كان سيتم داخل إيمانهم المطلق بالدين الذى آمنوا به واتبعوه.. على أنه مع وجود هذا التحفظ لن ينقص ذلك من قدرهما كحاكمين ديمقراطيين.

ذلك أن أى حاكم ديمقراطى إنما يعمل داخل حدود الدستور العادل القائم فى دولته.

وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم فى دولتهما..

لقد كان للقرآن فى أمتهم من الولاء والإجلال والهيمنة أكثر مما للدساتير فى كل دول الدنيا.

ولقد تضمن القرآن العظيم مزيتين من أعظم مزايا الديمقراطية:

أولاهما ـ أنه جعل الشورى واجبا مفروضا فى دولة الإسلام.

وثانيهما ـ أنه لم يلزم بطاعة أحكامه واعتناق مبادئه إلا من يقره ويختاره ويؤمن به.. أى بلغة عصرنا الحديث: "من تقترع عليه بالموافقة"!!

أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به من أهل الكتاب ـ يهود ونصارى ـ فلهم أن يعيشوا وفق عقائدهم، ويختاروا أسلوب حياتهم.

صحيح أن القرآن "دستور" لم يضعه الشعب، ولكنه دستور رضيه الشعب، وآمن به واقترع عليه، واستشهد فى سبيله.

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول ﷺ وساروا معه آمنوا بأن القـرآن وحى من عند الله وعليهم طاعته، ولم يكرههم أحد على الإيمان به.

ولقد حمل "الصديق أبو بكر" بعد الرسول مسئولية قيادة الأمة وفـق هذا الإيمان.

ثم حمل "الفاروق عمر" المسئولية بعد أبى بكر وفـق هـذا الإيمـان أيضا.

وإذن فالمعيار الصحيح الذى يوزن به حكمهما وديمقراطيتهما هــو مدى احترامهما لهذا القرآن.. لهذا الدستور، الذى آمن بــه المسـلمون واختاروه قانونا ومنهجا لحياتهم.

* * *

ولقد تحدث الفقهاء طويلا عن كون الشورى ملزمة أم غــير ملزمـة، أى هل ينتهى دور الشورى عند إبلاغ الخليفة أو الحاكم بها ثم لـه بعـد ذلك أن يأخذها وأن يرفضها .. وبهذا تكون غير ملزمـة..؟ أم أنـها ملزمـة وواجب على الحاكم الأخذ بها.

وعندى أنها ملزمة، ثم ملزمة.. ولـو لـم تكـن كذلـك لما كـان من ورائها جدوى ولا فائدة.

لأنه إذا كان المراد من الشورى تقليب وجهات النظر وصـولا إلـى الصواب، فإن فى الوحى غناء عن هذه المحاولة. ولن يعقـل أن يتخلـف الوحى عن رسول الله ﷺ فى موقف خطير كموقف الحرب فى غـزوة أحـد وغيرها.

وإذا كان الغرض من الشورى مجرد ترضيـة شـكلية للمسـلمين فـإن فى ذلك إحباطا وتثبيطًا، بل وإهانة للشـورى وللمستشـارين يجـل عنـها

مقام الرسول.

إذن يتعين أن يكون المراد من الشورى تمكين الأمة من حقها في أن يكون لها رأى محسوب في تقرير مصايرها، ويكون هذا الموقف بين الرسول والمسلمين مقصودا لتدريب الأمة على يد رسولها وقائدها.. تدريبها على ممارسة حق الشورى الذى هو من أهم وأجل حقوقها.

ثم إن مواقف الرسول وخلفائه من الشورى تدحض الرأى القائل بعدم الإلزام.

إن الرسول الذى كان معه الوحي يصبحه ويمسيه، أمره الله وأوجب عليه أن يشاور أصحابه.. ورأينا كيف خضع للشورى في أشد المواقف هولا وضراوة.

* * *

ولكن ماذا تعنى "الشورى" بلغة عصرنا الحديث الذى نعايشه ولا نستطيع منه فكاكا، وقديما قيل، ولعله حديث نبوى.

"الناس بزمانهم، أشبه منهم بآبائهم".

ما الشكل الذى يجب على الدولة المسلمة أن تكونه وفقا لمبدأ الشورى، ومتابعة لروح العصر..؟؟

هل يكفى اليوم أن يكتفى الحاكم بمشاورة أهل الحل والعقد، والشعب هناك قابع فى مسكنة وضياع كالمُقعد الضرير..؟!

ومن هم أهل الحل والعقد..؟!

إن هذا السؤال يرفض كل تجاهل له، ويدحض كل جبن عن مواجهته.

وعندى أن المفهوم الحديث للشورى التى زكاها الإسلام هى:

الديمقراطية البرلمانية..

أن ينتخب الشعب نوابا عنه يمثلون إرادته ومشيئته، ويختارون أو يختار الشعب كله معهم الحاكم الذى يرأس الدولة ويقودها ـ ويكون هؤلاء النواب حراسا على حقوق الأمة لدى الدولة يؤيدون الحاكم إذا صلح، ويقاومونه أو يعزلونه إذا زاغ وانحرف.

وهؤلاء النواب عندى هم "أهل الحل والعقد" لاسيما إذا طعم المجلس النيابى فى أمة ما ببعض الكفايات المتخصصة ولو بالتعين المحدود.

وهذه الديمقراطية تفتح ذراعيها للمعارضة داخل المجلس وخارجه عن طريق البرلمان والصحافة وكل وسائل الإعلام، فإن الديمقراطية بلا معارضة تعنى الديمقراطية بلا ديمقراطية ...!!

وقديما قلت:

"إن أفضل علاج لأخطاء الديمقراطية، هو المزيد من الديمقراطية"

هذه حقيقة نود للمستمسكين بالدولة الإسلامية أن يعوها جيدا.. فلا يقولن أحدهم: نظام دولتى الشورى ثم يمضى!! لابد من ترجمة هذه الكلمة إلى منهج سياسى مفصل..

ولقد أفضى بى البحث إلى أن الشورى هى اليوم "الديمقراطية البرلمانية" ولا تزيد..

ولن يكون ثمة حرج ولا بأس إن نحن أضفنا إلى تراثنا السياسى بعض النظم السياسية المعاصرة، فإن مجرد استخدام الإسلام لها وتدثيرها بجوهر مبادئه سيجعلها إسلامية، كما أصبحت بعض الكلمات

الأجنبية فى القرآن عربية بمجرد استخدام القرآن لها.

إن الحكم فى الإسلام ليس حكما مطلقا، ولا تسلطا وقهرا، ولكنه حكم شورى، حكم ديمقراطى بأصدق معانى هذا التعبير.

وهو فى نفس الوقت عقد بين الله والحاكمين أن ينشروا الإيمان ويقيموا العدل، ويكونوا أمناء على مصالح الناس ومصايرهم.

* * *

وبالتفسير الذى أسلفناه للشورى ندرك فى وضوح أن الحاكم ليس ملاكا يتنزل على الناس من السماء.. إنما هو بشر، ومواطن يختاره الشعب بكامل حريته ومحض إرادته ليحفظه ويقوده وفق الدستور والقانون.

ورئيس الدولة فى الإسلام، ليس من يشغل منصبه بالتعيين ولا بالوراثة، ولا بالعهد الذى لا تقره الأمة وترضاه.

ذلك أن الأمة لا تنعقد لأحد إلا بالاختيار والاتفاق.

قال علماء الفقه "الإمامة عقد" فالبيعة شرط أساسى لقيام رئيس الدولة.. إذ العقد يكون دائما بين طرفين، والطرف الأول لعقد الإمامة هو الأمة[1].

يقول البغدادى فى كتابه "أصول الدين":

"قال الجمهور الأعظم من أهل السنة ومن المعتزلة ومن الخوارج أن طريق ثبوت الإمامة هو الاختيار من الأمة".

ولهذا نجد أن الإمام عندما يريد ترك الإمامة فليس ثمة من يملك حق إعفائه سوى الأمة، وهذا يدل على أنها هى التى تملك حق توليته ـ

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية.

هذه نظرية الإسلام.

فالإمامة أو الخلافة هي حق الأمة، والأمة في الإسلام هي مصدر السلطات.. وهي بمجموعها أو عن طريق نوابها المنتخبين منها التي تختار رئيس الدولة الذي لن يكون أكثر من وكيل للأمة يصرف أمورها وشئونها.

وقد يبدأ اختيار الإمام من أهل عاصمة البلاد التي سيحكمها، ولكن ذلك لا يكفي، بل يتبعه بيعة الأمة كلها بنفسها أو بنوابها.

يقول الماوردي [١]:

"وليس لمن كان في بلد الإمام على غيره من أهل البلاد فضل مزية.. وإنما صار من يحضر ببلد الإمام متوليا لعقد الإمام عرفا لا شرعا لسبق علمهم بموته، ولأن من يصلحون للخلافة في الأغلب موجودون في بلده".

ويقول أيضا:

"إن عقد الإمامة عقد مراضاة واختيار، لا يداخله اكراه ولا إجبار".

وهناك تعريف رائع للإمام قاله الإمام "أحمد بن حنبل" عندما سئل عن معنى قول الرسول عليه السلام: من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية - فقال أحمد:

"أتدري من الإمام؟؟

"الإمام هو الذي يُجمع عليه المسلمون، كلهم يقول: هذا الإمام"..

---

[١] الأحكام السلطانية.

ولابد لتوضيح هذا الأمر الرجوع إلى عهد الراشدين لتوضيح بعض ما عساه أن يبهم علينا.

فالخليفة الأول "أبو بكر الصديق" رضى الله عنه تم اختياره لا تعيينه. إذ لم يعهد الرسول لأحد بالخلافة من بعده - وفى هذا إشارة واضحة إلى أنه عليه السلام احتفظ للأمة بحقها فى الاختيار.

تمت الخلافة لأبى بكر بالبيعة من بعض المسلمين يوم السقيفة ومن بقيتهم فى اليوم الثانى، ثم توالت البيعة من الأنحاء.. صحيح أن "عمر بن الخطاب" هو الذى بدأ بالبيعة وصمم عليها، ولكن ذلك لا يعنى انها كانت بيعة فرد بل كانت بيعة أمة، بيعة المهاجرين والأنصار الذين كانوا قد بايعوا الرسول من قبل وآزروه ونصروه.

يقول ابن تيمية فى كتابه "منهاج السنة".

"لو أن عمر وطائفة معه بايعوا أبا بكر، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر أبو بكر إماما بذلك - وإنما صار إماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة"..

وكذلك يقول الإمام الغزالى:[١]

"لو لم يبايع أبا بكر غير عمر، وبقى كافة المسلمين مخالفين أو انقسموا انقساما متكافئا لا يتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الإمامة".

وأمير المؤمنين "عمر" نفسه يدرك ذلك ويحض الأمة على أن تحتفظ بحقها فى الاختيار.. وفى الخطبة الشهيرة التى ألقاها عقب

(١) الرد على الباطنية - نقلا عن النظريات السياسية الإسلامية.

عودته من موسم الحج قال:

".. فمن بايع رجلا عن غير مشورة المسلمين، فإنه لا بيعة له هو ولا الذى بايعه".

* * *

فإن عهد الإمام القائم بالأمر لآخر من بعده ـ كما فعل أبو بكر مع عمر ـ فلابد من توافر شروط الإمام فيمن يعهد وفيمن يعهد إليه من أمانة ونزاهة وكفاءة وورع وإخلاص.. ثم لابد من توثيق هذا العهد برضاء الأمة أو الأغلبية منها وإقراره.

أما توريث ابن أو قريب غير صالح للإمامة، وليس معه من شروطها وصفاتها شيء، إلا ما يصله بالموصى من قرابة أو صهر، فهذا مناف لروح الإسلام ووجهته.

يقول ابن خلدون[1]:

"وأما أن يكون المراد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية، وينبغى تجنبه خوفا من العبث بالمناصب الدينية".

وعلينا أن ندرك جيدا أن اختيار أبى بكر لعمر لا يعنى فقدان العامل الديمقراطى فى اختيار الخليفة.

فأبو بكر اختار عمر لا بصفته الشخصية، بل بوصفه خليفة تبوأ منصبه هذا باقتراع الأمة عليه واختيارها إياه، فكأنه نقل بيعة الأمة منه إلى من اختاره.. ثم إنه اختار أصلح المسلمين لهذا المنصب فى تلك الظروف.. ثم أنه قبل اختياره استشار جمهرة الصحابة وقادتهم.

---

(1) المقدمة.

يقول الطبرى فى تاريخه[1]:

"إن أبا بكر لم يكتب عهده لعمر إلا بعد أن استشار كبار الصحابة وهم قادة الرأى وموضع ثقة الأمة فأثنوا كلهم على عمر، وقال عثمان بن عفان: [اللهم إن علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله].

"ولما أتم استشاراته أشرف على الناس فقال لهم: [أترضون بمن أستخلف عليكم..؟] فإنى ما ألوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرابة، فقالوا سمعنا وأطعنا".

ثم، وهذا هو الأهم فإن جميع المسلمين فى شتى الأنحاء وافقوا يومئذ على تنصيب عمر خليفة ولم يقم أحد بالاعتراض مع قدرتهم على ذلك لو أرادوا بدليل ما حدث فى أواخر عهد عثمان.. وكذلك لم تكن بيعة "عثمان" من الستة الذين اختارهم "عمر" لترشيح الخليفة واختياره، بل كان.. وهنا نترك الحديث لابن تيمية الذى يقول:[2].

"إن عثمان لم يصر إماما باختيار بعضهم، بل بمبايعة الناس له. وجميع المسلمين بايعوا "عثمان بن عفان" ولم يتخلف عن بيعته أحد.. قال الإمام أحمد: ما كان فى القوم من بيعة عثمان كانت بإجماعهم. وإلا لو قدر أن عبد الرحمن بن عوف بايعه ثم لم يبايعه على ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر إمامًا."

"ثم إن ابن عوف حلف أنه أقام ثلاثا لم يغتمض فيها بنوم

---

(١) الجزء الأول.

(٢) منهاج السنة.

يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمراء الأنصار فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان.

وقدموا عثمان وبايعوه، لا عن رغبة أعطاهم إياها، ولا عن رهبة أخافهم بها".

وأياما يكن الأمر، فإن روح الإسلام وروح ما أسلفنا من وقائع ثم روح العصر الذى نعيش فيه تحتمان قيام البيعة لرئيس الدولة بالشورى والاقتراع الحر الذى تيسرت أسبابه فأصبح من المستطاع معرفة رأى الأمة فيمن تختاره لرئاستها وتقترع عليه فى يومين أو ثلاثة مهما يبلغ تعدادها وتتسع رقعتها.

وعلى اختيار الشعب لحاكمه يتوقف مستقبله القريب والبعيد.

ومن الظواهر الصادقة أنه كلما كانت الأمة عالية فى مستواها الحضارى، كان اختيارها لحكامها صائبا وسديدا.

والإسلام يعلمنا أن سوء اختيار الحاكم إيذان بضياع الأمة..

يقول عليه السلام:

"إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".

أى إذا ولى الحكم فى أمة من الأمم من ليس أهلا له، فانتظر ساعة هذه الأمة تدق. معلنة ضياعها وهلاكها..!!

والحاكم المسلم يحقق أمرين لابد منهما ـ القدوة الصالحة، والعدالة الشاملة.

إنه يرث رسول الله فى منصبه كقائد دولة، لهذا كان حتما عليه أن يسير على نهج الرسول ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ويصف الإمام على الحاكم المسلم فى شىء من التفصيل فيقول:

"لا ينبغى أن يكون الوالى على الأعراض والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين بخيلا، فتكون أموالهم نهمته.. ولا جاهلا، فيقتلهم بجهله.. ولا جافيا، فيقطعهم بجفائه.. ولا خائفا من الدول، فيتخذ قوما دون قوم.. ولا مرتشيًا فى الحكم، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع.. ولا معطلا للسنة، فيهلك الأمة"..

وللدولة المسلمة طاعة أبنائها ما دامت متحققة بالدين الذى أقامها ودعا الناس لطاعتها.

يقول عليه السلام:

"اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله".

ويقول عليه السلام:

"على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

أجل ما أقام فيكم كتاب الله.. أى ما احترم الدستور الذى تحيا عليه وتدين به الدولة المسلمة.

فإذا فسق الحاكم وبغى وظلم فلا سمع له ولا طاعة، بل ولا بيعة وعلى الأمة أن تنبذه وتخلعه.

ذلك أن الدولة كلها وسلطاتها الثلاث جميعا ـ التشريعية، والتنفيذية، والقضائية ـ كل هؤلاء أمناء على حكم الله وعلى مشيئة الشعب.

وأى نوع من الحكم يعطل كتاب الله الذى هو دستور الدولة المسلمة ويتحدى إرادة الأمة، ويودى بسيادة القانون فلا حرمة له ولا ذمة ولا بقاء.

ولا تنتهى مهمة الأمة باختيار الحاكم، بل تبدأ بهذا الاختيار وتذهب معه كل مذهب، وتراقبه وتعاونه على البر والتقوى، وتزجره عن الخيانة والانحراف.

وهذا يتأتى بوجود رأى عام قوى وذكى.

والرأى العام فى الدولة المسلمة ضرورة مفروضة، لأنه صمام الأمان، والعين الثاقبة، والكلمة الطيبة.

والرأى العام، هو الذى أسماه القرآن والإسلام [الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر].

أجل ـ هذا هو ما نسميه اليوم بلغة العصر "الرأى العام" ذلك أن وظيفة الرأى العام هى متابعة أحداث المجتمع ومراقبة جميع سلطاته وتسليط الضوء على الأخطاء السياسية والأخلاقية، والاجتماعية ومقاومة كل تحد للدستور والقانون، وتبصير الآخرين من فئات الشعب بواجبهم تلقاء المواقف والأحداث.

وهذه تماما هى وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ودور الرأى العام فى الدولة المسلمة دور ترشيد وبناء.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن الله يرضى لكم ثلاثة:

"أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ".

"وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا" .

"وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم" .

ويقول عليه السلام:

"الدين النصيحة.. قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم" ..

ويقول أيضًا :

"ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم:

- إخلاص العمل لله
- ومناصحة ولاة الأمر
- ولزوم جماعة المسلمين" .

فالنصح للحاكم أول وظائف وواجبات الرأى العام.. وكلما كان الرأى العام مهذبًا جاءت نصائحه مهذبة. فالنصح شىء آخر غير التشهير به والحقد عليه.

وإذا توجه الرأى العام بنصحه فلوى الحاكم جيده وثنى عطفه، فإن ذلك لا ينبغى أن يفت فى عضد الناصحين بل عليهم أن يتشبثوا بكلمتهم ويرددوها كالنشيد، ويذيعوها بين الناس حتى يتكون حولها رأى عام يصبح قادرًا على إبلاغها وإخضاع الحاكم لها.

وكل حاكم يضيق بالرأى العام ويحاول خنقه فهو فى نظر الإسلام معطل لشريعة من شرائع الله وفريضة من فرائضه.. تلك هى فريضة "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" .

لقد كرم الله هذه الأمة المحمدية لأنها تحيى شعيرة الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال تعالى:

﴿ كُنتُم خَيرَ أُمَةٍ أُخرِجَت لِلنَاس. تَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنهَونَ عَن المُنْكَرِ ﴾.

وأهان ولعن قومًا آخرين لأهم تخلوا عن فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال سبحانه:

﴿ لُعِنَ الذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيل عَلى لِسَانِ دَاودَ وَعِيسى بن مَريَم ذَلِك بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعتَدُون كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوه لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون ﴾.

وقال عن أحبارهم الذين صمتوا عن كلمة الحق:

﴿ لَولا يَنْهَاهُم الرَبَّانِيون وَالأَحْبَار عَن قَولِهم الإِثم وَأَكْلِهم السُحت لَبِئسَ مَا كَانُوا يَصْنَعون ﴾.

ووقف خليفة رسول الله أبو بكر يوما خطيبًا فقال:

"سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب".

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر. أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم".

إلى هذا المدى يزود الإسلام دولته ومجتمعه برأى عام فعال وبار ونشيط..

وكما قلنا، فإن محاولة الدولة إحباط هذا الرأى العام ووأده

يعرضها لمقت الله وسخرية الناس ويحق عليها المقاومة وضرورة التغيير.

إن الإسلام يدرك أن الحياة الإنسانية مكتظة بالخطايا والاخطاء ويدرك أن الله لم يعط إنسانا الحقيقة وحده مهما أوتى من بسطة فى العلم والذكاء.

ويدرك أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة.. من أجل هذا راح يحاصرها - إن صح هذا التعبير - برأى عام يقظ ومخلص ورشيد، ينهنه من كبرياء السلطة ويطامن من غرورها، فإذا تنكر الحاكم لهذا الرأى العام واحتال على إسكاته بالكذب والخديعة، أو بطش به غير مبق عليه ولا مكترث به فقد حرم نفسه قبل أن يحرم الأمة من النور الذى يضىء له الطريق.

والدولة كما نعلم، تقف على رأس التنظيمات السياسية للأمة.

ولكى ينهض من حولها رأى عام يساندها إذا صلحت، ويقومها إذا انحرفت، فلابد لهذا الرأى أن يكون متمرسا بكل مشاكل الأمة وقضاياها وعلى وعى عميق بها.. ولابد أن يكون له من الفكر السياسى نصيب موفور، إذ كيف يكون له رأى فى القضايا السياسية دون أن يكون له علم بها ؟!

ومن هنا نرى أن الإسلام عبادة وسياسة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

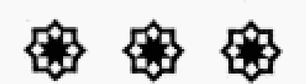
فالمسلم الذى يقضى نهاره صائمًا، وليله قائمًا، ثم ينفض يديه من مشكلات أمته، ويتخلى عن واجبه المحتوم فى الاهتمام بأمر الأمة

المسلمة لا يكون منها ولا يحسب عليها.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"لأن أمشى فى حاجة أخ لى حتى تقضى أحب إلى من أن أعتكف فى مسجدى هذا شهراً"..!!

هذا في حاجة فرد.. فكيف بحاجات أمة، ومشكلات مجتمع، وسياسة دولة..؟!!



٨

والدولة الإسلامية دولة دستورية لها دستور ينظم حياتها السياسية، ويكفل حقوق الأمة عليها وحقوقها على الأمة، ولها قوانين سائدة ومتطورة فى حدود علاقاتها بالدستور.

ودستور الإسلام هو القرآن، والسنة، والإجماع.

القرآن أولا.. ثم تأتى السنة والإجماع ومعهما الاجتهاد ليفصلوا من القرآن ما أجمل، ويوضحوا ما أحكم، ويأتى الفقه الإسلامى فيضع القوانين المستنبطة من كتاب الله، وسنة رسوله. وإجماع أمته ويثرى الإسلام إثراء هائلا وعظيمًا.

والقرآن دستور الدولة المسلمة يمتاز عن كل دساتير الدنيا ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها بأنه ليس من صنع البشر، بل تنزيل من حكيم حميد.

وهو بهذه المثابة فوق كل محاولة للتمرد عليه أو التغيير فيه. ثم هو بهذه المثابة أيضا أكثر دساتير البشر تمكينًا للاستقرار والرسوخ مع قابلية فذة وذكية لكل مسايرة لروح العصر وتطور الأنظمة، وأن الإنسان ليقع فى حيرة شديدة كلما رأى حكومات إسلامية ومجتمعات إسلامية تتخذ القرآن مهجورًا ..!!

إن دستور الدولة الإسلامية هذا فوق كل عصيان أو مخالفة.. هذا هو مكانه الذى بوأه الله إياه.. حتى الرسول الذى أنزل عليه لا يملك مخالفته أو تغييره.

ونحن نعلم أن وجود حكومة ما يعنى أن هناك قانونا يطاع ويسود. فوجود حكومة إسلامية يعنى أول ما يعنى إجلال دستورها والخضوع لقوانينها.

ولقد جاء الإسلام بدستوره الإلهى "القرآن" ثم وسع الفقه الإسلامى كما ذكرنا من قبل دائرة التقنين والتشريع بحيث فصل وقنن كل علاقة الفرد بنفسه، وبأسرته، وبجيرانه، وبمجتمعه، وبحكومته، وبعالمه الفسيح كله.. وقبل هؤلاء جميعًا وطد علاقة الإنسان بربه.

وإذا كان تحكيم الدستور وطاعته واجب الأمة، فهو أولاً وقبلاً واجب الحاكم.

فالحاكم المسلم الذى لا يحكم الدستور القرآنى، يصعب جدا الاعتراف له بأنه حاكم مسلم.

لقد ربط القرآن طاعة أولى الأمر بطاعة الله ورسوله فقال:

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾.

ولعله لحكمة ما، لم يقل: وأطيعوا أولى الأمر منكم إذ اعتبر طاعتهم امتدادًا لطاعة الله ورسوله مادام حكمهم امتدادا لشريعة الله ومبادئ رسوله.

من أجل هذا كانت أول كلمات استقبل "أبو بكر الصديق" بها المسلمين أثر مبايعته:

"أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم".

ومعنى هذا أن الحاكم المسلم الذى يعصى الله فى حكمه، ويجحد قرآن ربه، يوقع فى نفس الوقت وثيقة عزله..

ومن أجل هذا رأينا "الفاروق عمر" يستهل اللحظات الباكرة من خلافته بسؤال وجهه إلى حشود المبايعين:

"ما تقولون إذا ملت برأسى هكذا؟؟".

فيجيبه أحد الصحابة وقد انتضى سيفه وشق به الهواء:

"إذن نقول بالسيف هكذا"!!

فيتهلل وجه "عمر" ويقول:

"الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه"..!!

أرأيتم..؟؟

إن الرجل الذى يتحدث بهذه الكلمات هو الذى سيورثه الله عما قريب ملك كسرى وقيصر.

الرجل الذى كان أصحابه يرقبون ابتسامته ترقب الأهلة من طول كظمة شفتيه خوفا من الله وتوقيراً له، وفرقا من مسئولياته أن يزل فيها أو ينوء بها.

والرجل الذى خلق ليقود عالما، والذى رزق طبيعة تقتلها الراحة

ويغريها العمل بالعمل[١].

هذا هو الرجل الذى يتهلل وجهه، ويتلألأ الحبور على جبينه عندما يرى سيفا يلوح به صاحبه وهو يقول لأمير المؤمنين:

"إذن نقول بالسيف هكذا"!!!

* * *

ولماذا نعرض عن القرآن؟؟

لماذا نتهيب الحكم به والتسليم له؟؟

أنستطيع أن نحكم أنفسنا بخير منه؟؟ أيستطيع عباقرة التشريع أن يتفوقوا عليه، ويأتوا بأفضل منه؟؟

هذا الذى نقل إلينا كلمات الله عنه فقال:

﴿ قَد جَاءَكُم مِن اللهِ نُور وَكِتَابٌ مُبِين ﴾.

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ ﴾.

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوه ﴾.

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيكَ لِتُخْرِجَ النَاسَ مِن الظُلُمَاتِ إِلى النُور ﴾.

﴿ وَنَزَّلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ تِبيَانًا لِكُلِ شَيءٍ ﴾ .

﴿ أَوَ لَم يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيهِم ﴾.

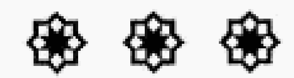
إنه دستور لا يُزاحَم ولا ينافَس ولا يضاهَى به سواه وليس أمام الدولة المسلمة أى خيار فى أن تأخذ بعضه وتذر بعضه، وإن فعلت صمها تأنيب لله وهو يقول:

﴿ أَفَتُؤمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرونَ بِبَعض فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَل

(١) راجع كتابنا "بين يدى عمر" طبعة دار المعارف.

ذَلِك مِنْكُم إلا خِزىٌ فِى الحَياةِ الدُنيَا وَيَومَ القِيامَةِ يُرَدُونَ إلى أشَدِ العَذَاب، وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلون ﴾..!!

كل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين وآداب موجود فى إسلامنا.. موجود فى قرآننا العظيم.. وليس ثمة ما يدعو إلى هجر القرآن، ولا إلى هجر الإسلام اللذين ارتضاهما الله لنا كتابا ودينا.



٩

ولكن ما منهج الدولة المسلمة فى العلاقات الدولية..؟

وهل هى دولة حرب أم دولة سلام..؟

أما منهجها فى العلاقات الدولية فتوضحه آية من آيات دستورها "القرآن" تلك التى تقول:

﴿ لا يَنْهَاكُم اللهُ عَن الذين لَم يُقَاتِلُوكُم فِى الدِينِ وَلَم يخرجُوكُم مِن دِيَارِكُم أن تَبرُوهُم وتُقسطُوا إليهم إنّ الله يحب المُقسطِين ﴾.

﴿ إنَمَا يَنهَاكُم اللهُ عَن الذِين قَاتَلُوكُم فِى الدِين، وأَخرَجُوكم مِن دِيَارِكُم، وَظَاهَروا عَلى إخرَاجِكم أنْ تَوَلَّوْهُم وَمَن يَتوَلهُم فأُولئِكَ هُم الظَّالِمُون ﴾.

فالدولة المسلمة مأمورة من ربها، ومدعوة من دستورها إلى أن تقيم تعايشا سلميا بينها وبين كل دولة لا تقدم إليها الأذى ولا تحوطها بالمؤامرات.

ووفق الآية السالفة، فإن كل من يقاتلنا فى ديننا، ولم يخرجنا ـ نحن المسلمين ـ من أرضنا، ولم يظاهر غيره على إخراجنا فله مودتنا الخالصة وتعاوننا الوثيق.

وبالعكس، فإن كل من يقاتلنا فى ديننا ويخرجنا من أرضنا، أو يظاهر الذين يخرجوننا، فليس له إلى مودتنا ولا إلى صداقتنا سبيل.

هذا هو موقف الدولة المسلمة من العالم الذى حولها توضحه الآية الكريمة فى إيجاز مبين.

والهيئات الدولية التى تقوم والمواثيق الدولية التى تنشأ تأخذ الدولة المسلمة مكانها بينها وتحمل تبعاتها منها، فلا تهدم بنيانا ولا تحنث بعهد وميثاق، ذلك أن دستورها يأمرها:

﴿ يَا أَيُّهَا الذِين آمَنُوا أَوفُوا بِالعُقُودِ ﴾.

﴿ وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسئولا ﴾.

ولقد أنشأ الرسول ﷺ معاهدات كثيرة تميزت بنشدانها السلام وتوكيدها على المشاركة العادلة فى خدمة المتعاقدين ولم يحدث أبدا أن نكث الرسول بعهد أعطاه أو موثق أمضاه.

ويصلنا الحديث بالسؤال الذى طرحناه آنفا:

هل الإسلام دين حرب أم دين سلام؟

وعندى أن الجواب الصحيح هو أن الإسلام دين عدل.. فعندما تكون الحرب عدلا وتحقيقا للعدل فهو دين حرب. وعندما يكون السلام هو العدل فهو دين سلام.

لا يجبن عن نصرة الحق، ولا يهرب من تبعات السلام.. والمهم هو سلوك الآخرين.. ماذا يريدون للإسلام. الحرب أم المسالمة..؟؟

لقد قال الله لنبيه، وهو فى نفس الوقت أمر للدولة المسلمة:

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسِلْمِ فَاجْنَح لَها وَتَوكَّل عَلى اللهِ إنَّهُ هُو السَمِيعُ العَلِيم ﴾.

وأمره وأمر الدولة حيث تكون بأن تقف موقف الحذر من الذين:

﴿ إِن يَثقفُوكم يَكُونوا لَكُم أَعْدَاءً، وَيَبْسُطُوا إِلَيكُم أَيْدِيهِم وَأَلسِنَتَهم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَو تَكْفُرون ﴾.

ونحن إذ نتتبع آيات القتال فى القرآن - دستور الدولة المسلمة - نجد أن أول آية نزلت آمرة بالقتال والجهاد كانت هذه الآية:

﴿ أُذِنَ للذِينَ يُقَاتَلُون بِأَنَّهُم ظُلِموا وَإِن اللهَ عَلى نَصرِهِم لَقَدِير الذِين أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍ إِلا أَن يَقُولوا رَبُّنَا الله ﴾.

وكم هو رائع هذا التعبير "أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا - بضم الظاء.

إن أول آية نزلت فى القرآن تبيح القتال وتأذن للمسلمين بمجاهدة عدوهم،تمنحنا الفهم بأن المسلمين كانوا ممنوعين من حمل السيف ضد عدوهم لعله يرتدع ويتذكر ويخشى ويثوب إلى رشده بما يلقونه به من حلم ومصابرة، فلما فشا بغيه واشتدت على المسلمين وطأته، أذن للذين يقاتلون بأنهم أى لأنهم ظلموا..

فهنا قوم مظلومون مضطهدون، ورغم قدرتهم على القتال فهم مدفوعون عنه وممنوعون منه حتى جاءهم الإذن من الله الذى هو على نصرهم قدير.

وهذه الآية تبين طبيعة الحرب فى الإسلام ووظيفتها ، فهى حرب دفاع، لا حرب غزو واستعمار وقهر وتسلط.

وكذلك الآيات التى أنزلت خلال تطور المجابهة العسكرية بين الإسلام والشرك، بين المسلمين وأعدائهم تلتزم نفس الغاية: الدفاع عن

النفس.. والدفاع عن حق الإنسان فى اختيار عقيدته وإيمانه ونوع حياته، وحقه فى دعوة الآخرين من بنى البشر إلى ما يرى فيه صلاح أمرهم.

فالآيات تقول:

﴿ وَقَاتِلوا فِى سَبِيلِ اللّهِ الذِين يُقَاتِلونَكُم، وَلا تَعتَدُوا إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُ المُعتَدِين ﴾.

وتقول:

﴿ فَإِن قَاتَلُوكُم فَاقْتُلُوهُم كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِين فَإِن انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وتقول:

﴿ وَمَا لَكُم لا تُقَاتِلون فِى سَبِيلِ اللّهِ وَالمُسْتَضعَفِين مِنَ الرجَالِ وَالنسَاءِ وَالوِلدَانِ الذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أخرِجنَا مِن هَذِهِ القَريَةِ الظَالِمِ أَهْلِها، وَاجعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًا، وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيرًا ﴾.

كل هذه الآيات نزلت تدعو المسلمين إلى الدفاع عن أنفسهم، وإلى قتال من يقاتلهم، فلما احتشد أهل مكة مع قبائل العرب واليهود مصممين على الخلاص بالحرب من الإسلام ورسوله نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَقَاتِلوا المُشرِكِينَ كَافَةً كَمَا يُقَاتِلونَكُم كَافَة ﴾.

ونزلت الآية الكريمة:

﴿ وَإِمَّا تَخَافن مِن قَومٍ خِيانة فَانْبذ إِليهم عَلَى سَوَاء إِن اللّهَ لا

يُحِب الخَائِنين ﴾.

لقد نبأ الله المسلمين بنوايا المشركين واليهود تجاههم فقال:

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكم حَتى يَرُدُّوكم عَن دِينِكُم إن استَطَاعُوا.. وَمَن يَرتَدِد مِنكُم عَن دِينِه فَيمُت وَهُوَ كَافِر، فَأُولَئِكَ حَبِطَت أَعمَالَهم فِي الدُّنيا وَالآخِرة وَأُولَئِك أَصحَابُ النَارِ هُم فِيهَا خَالِدُون ﴾.

أمام هذا الجموح العنيد من أعداء الإسلام، وأمام إصرارهم على إفناء المسلمين لا يخجل الإسلام من أن يكون دين حرب وقتال، بل عندئذ يعد الجهاد في سبيل الله فريضة على المسلمين ويدعوهم أن يهبوا حاملين الراية منتضين السيوف طامحين إلى إحدى الحسنيين النصر، أو الشهادة..

وهو ـ أعني الإسلام ـ لا يترك عندئذ فرصة لجعل المسلمين مقاتلين مستبسلين إلا أغتنمها ودق طبول الحرب عندها.

﴿ وأَعِدُوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوة، وَمِن رِبَاطِ الخَيلِ تُرهِبونَ بِهِ عَدُو الله وعَدُوكُم ﴾.

﴿ وَالذِين آمَنوا، وَهَاجَروا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله بأَموَالِهم وَأَنفُسِهِم أَعظَمُ دَرجَةً عِندَ الله وأُولَئِك هُم الفَائِزون ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَبِي حَرِّض المُؤمِنِينَ عَلى القِتَالِ ﴾.

﴿ وَاقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم وَأَخرِجُوهُم مِن حَيثُ أَخرَجُوكُم ﴾

﴿ فَليُقَاتِل فِي سَبِيلِ الله الذِينَ يَشرُونَ الحَياةَ الدُّنيا بِالآخِرة ﴾.

﴿ وَمَن يُقَاتِل فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَل أَو يَغلِب فَسَوفَ نُؤتِيهِ أَجرًا عَظِيمًا ﴾.

﴿ فَإِمَا تثقفنهم فِي الحَرْب فَشرد بِهِم مِن خَلفِهِم لَعَلهُم يَذْكُرُون﴾

﴿ إِن اللهَ اشتَرى مِن المُؤمِنِينَ أَنْفُسهُم وَأَموَالَهم بِأَن لَهُم الجَنة يُقَاتِلون فِي سَبِيلِ اللهِ فيَقتُلون وَيُقتَلون وَعْدًا عَليه حَقًا فِي التَوراَة وَالإِنجِيل وَالقُرآن وَمَن أَوْفَى بِعهْدِهِ مِن الله ﴾.

﴿ إِن الله يُحب الذِينَ يُقَاتِلونَ فِي سَبِيلِه صَفًا كَأَنَّهم بُنيَانٌ مَرصُوص ﴾.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُم الذِينَ كَفَرُوا فَضَربَ الرقَابِ حَتى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم فَشُدُوا الوَثَاق فَإِمَّا مَنًا بَعدُ وَإِمَا فِدَاء حَتى تَضَع الحَربَ أَوزَارَها﴾

أجل ـ لا يسوء الإسلام ولا ينتقص من قدره أن يكون دين حرب وقتال إذا جوبه بعداوة حاقدة وهجوم مسلح من أعدائه وأعداء هويه.

لن يدع الإسلام أهله يقفون مكتوفى الأيدى وهم يذبحون، ولن يأمرهم أن يديروا خدهم الأيسر لمن يلطم خدهم الأيمن، لأن هذه مثالية لم ترق إليها بعد طبيعة الإنسان.

بل من قاتلك فقاتله.. ومن قتلك فاقتله.

﴿ وَلَكُم فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾.

﴿ قَاتِلوهُم، يُعذبْهم الله بأَيدِيكُم وَيُخزِهِم وَيَنصُرَكُم عَلَيهِم وَيَشفِ صُدُورَ قَومٍ مُؤمِنِين ﴾.

* * *

إننا حين نتتبع غزوات الرسول لا نجده قد خرج فى واحدة منها بادئا بقتال.

- كانت غزوة "بدر" دفعا للمشركين الذين جاءوا يقتحمون على المسلمين حياتهم الجديدة فى المدينة..
- وغزوة "أحد" كانت دفعا للهجوم الكاسح الذى شنه المشركون الذين جاءوا فى ثلاثة آلاف مقاتل، بينما خرج الرسول بألف رجل رجع ثلثهم من منتصف الطريق بتحريض زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول.
- ويجىء قوم إلى الرسول يرجونه أن يرسل معهم وفدا من أصحابه يعلمون قومهم القرآن والإسلام، وفى الطريق غدروا بهم وقتلوهم فكانت غزوة "بنى لحيان".
- لقد قتل المجرمون نفرا من خيار أصحاب الرسول، ولما علموا بخروج الرسول إليهم هربوا وتمنعوا فى رءوس الجبال وعلى الرغم من أنه لم يدر قتال، فقد تعلم خصوم الإسلام أن دم المسلم - أى مسلم - غال وعزيز.
- ويحاول اليهود من بنى النضير اغتيال الرسول عليه السلام، فيخرج إليهم ويحاصرهم.. حتى إذا توسلوا إليه أن يتركهم يغادروا المدينة إلى خيبر سمح لهم بذلك مع علمه تماما أنهم فى "خيبر" سيحرضون عليه قريشا والقبائل.
- وقد حدث هذا فعلا، فقد ذهب يهود بنى النضير هؤلاء يحرضون على الرسول قريشًا وسائر العرب، ويخربون ضده الأحزاب حتى فوجئ المسلمون ذات يوم بعشرة آلاف مقاتل

يهاجمون المدينة - وكانت هذه غزوة "الخندق" التى رد الله المشركين واليهود بغيظهم مدحورين.

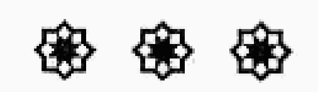
- وفى غزوة الخندق هذه قام جماعة أخرى من اليهود، هم يهود بنى قريظة بخيانة بشعة مولين ظهورهم لما كان بينهم وبين الرسول من عهد، وكادت خيانتهم هذه تودى بالإسلام وبالمسلمين فكان لابد من تأديبهم، وهكذا كانت غزوة "بنى قريظة".
- ولا يكاد الرسول والمسلمون يستريحون حتى تأتيهم الأنباء بأن بنى المصطلق قد خرجوا لحربهم تحت قيادة الحارث بن أبى ضرار، فكان لابد من ملاقاتهم وهكذا كانت غزوة "بنى المصطلق" التى هزم فيها الجيش المعتدى هزيمة ساحقة.
- ولا يكف اليهود عن التآمر ضد الرسول والإسلام، ولا يقفون عن الدس والإرجاف، وغرتهم مصابرة الرسول لهم، بل ومحافظته على كل حقوقهم واحترام شعائرهم فحشدوا جموعهم للإغارة على المدينة، وتزعم هذه المحاولة يهود خيبر، فاضطر الرسول للخروج إليهم وإسكات صوتهم إلى الأبد..
- وتوجس الروم من الإسلام خيفة، وصاروا يرون فيه خطرا يهددهم لاسيما فى بلاد الشام التى يستعمرونها والتى تتاخم بلاد هذا الدين الجديد، وهكذا راحوا يتخذون من الشام مركز شغب ووثوب وتجرأ حلفاؤهم الغساسة على قتل الرسول الذى بعثه النبى ﷺ إليهم بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، وازداد تحرش الروم وتنمرهم وراحوا يحشدون جيشهم على الحدود فلم يكن بد من أن يخرج المسلمون إليهم وكانت هذه غزوة "مؤتة".

- وينقض أهل مكة معاهدة الحديبية المبرمة بين الرسول وبينهم رغم ما أعطاهم الرسول فيها من تنازلات كادت تعصف بإيمان بعض المسلمين. ومع هذا ففى السنة الثامنة للهجرة نقضت قريش عهدها، وأغارت على حلفاء الرسول الذين استنصروا به فلم يكن بد من نصرتهم وهكذا كان فتح مكة العظيم..!!
- ولا يكاد الرسول يتهيأ للراحة قليلاً حتى يفاجأ بعد خمسة عشر يومًا من فتح مكة بقدوم هوازن وثقيف فى جيش لجب يريدون قتال الرسول والمسلمين، فكان لابد أن يخرج للقائهم، وكذا كانت غزوة "حنين" ثم حصار الطائف.
- ثم لا يمر إلا زمن وجيز حتى يفاجأ الرسول بحشود هائلة من الروم تتجمع على حدود فلسطين لقتال المسلمين، فكان لابد أن يخرج الرسول إليهم على رأس جيش عظيم ـ وهكذا كانت غزوة "تبوك" التى هى آخر غزواته عليه الصلاة والسلام والتى انتهت دون قتال.

فأين فى ذلك كله روح العدوان؟؟ أين حب المغامرة الشريرة والقتال الباغى..؟!

إلا أن الإسلام دين القتال ما كان القتال عدلا.. ودين السلام ما كان السلام عدلا.

والدولة المسلمة مأمورة بالتزام هذا النهج دون إفراط ودون تفريط.



١٠

ودولة الإسلام حصن حصين للأقليات التى تعيش معها وبين مواطنيها، لاسيما حين تكون هذه الاقليات أهل كتاب أو أهل ذمة كما يسميهم الإسلام.

إن الدولة الإسلامية مامورة من الله ومن رسوله برعاية حرماتهم وحفظ حقوقهم، وتركهم أحرارا فى العيش وفق معتقداتهم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من قتل معاهدا، حرم الله عليه الجنة".

ويقول عليه السلام:

"من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة".

وعن العرباض بن سارية السلمى رضى الله عنه يقول:

"نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين. وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرًا، فأقبل إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد أيحل لكم أن تذبحوا حمرنا، وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟"

"فغضب رسول الله ﷺ وقال يا ابن عوف، اركب فرسـك ثـم ناد: إن الجنـة لا تحـل إلا لمؤمـن وأن اجتمعـوا للصـلاة، فاجتمعوا ثم صلى بهم عليه السلام ثم قـام فقـال: أيحسـب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله تعالى لم يحرم شـيئًا إلا ما فى القرآن..؟!"

"ألا وإنى والله قد وعظت وأمرت ونـهيت عـن أشيا ء إنـها لمثل القرآن."

"وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتـاب إلا بإذن ولم يحل لكم ضرب نسائهم، ولا أكل ثمـارهم إذا أعطوا الذى عليهم"!!

فالإسلام يحفظ حقوق المواطنين جميعا مسلمين كانوا، أو يهودًا أو نصارى وإذا كان يفرض علـى اليـهود والنصـارى "الجزية"، فكما يفرض على المسـلمين "الزكـاة" كلتاهمـا ضريبة تـؤدى لبيـت المـال، بـل إن المسـلم يدفـع الزكـاة ويحارب ويتحمل كل مشاق القتال، أما الذمى يهوديا كـان أو نصرانيا فإنه لا يحارب ولا يخرج لقتال..!!"

وحين نطالع علـى سـبيل المثـال بعـض المعـاهدات التـى حررها رسـول الله عليـه السـلام وخلفـاؤه مـن بعـده لأهـل الكتاب نرى عجبًا..

فلليهود يقول الرسول فى عهده لهم ومعهم:

"إن يـهود بنـى عـوف أمـة مـع المؤمنيـن.. لليـهود دينـهم،

وللمسلمين دينهم ـ مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته"[١].

ثم يعدد الرسول بقية اليهود الذين لهم مثل مالبنى عوف من عهد

وفى عهده لنصارى نجران يقول عليه السلام:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان من الله ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصارى ـ من كان منهم على دين نجران، أو على شىء من نحل النصرانية كتبه لهم محمد بن عبد الله رسول الله إلى الناس كافة. ذمة لهم من الله ورسوله وعهد إلى المسلمين من بعده. عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم "ليس لأحد من الولاة، ولا لذى شيعة من السلطان وغيره نقضه" .

ثم يفصل حقوق النصارى فى كتاب آخر وعهد آخر وفيه يقول:

".. للسيد الحارث بن كعب، ولأهل ملته، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها .. أعطيهم عهد الله وميثاقه أن أحفظ أقاصيهم، وأحمى جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم وأن أدخلهم فى ذمتى وأمانى، ولا يهدم بيت من بيوت بيعهم، ولا يدخل شىء من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين فمن فعل ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله" .

---

(١) كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة. وجمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادى.

والميثاق طويل فليراجعه من يشاء فى مصدره[١] وهو ميثاق يزخر بأنبل ما فى الإنسانية من عاطفة، وأعظم ما فى الحياة من وفاء ورحمة وصدق ونبل.

وعندما بويع "أبو بكر" جدد العهد لنصارى نجران مرة أخرى:

"هذا ما كتب به عبد الله أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ لأهل نجران.

"أجارهم بجوار الله، وذمة رسوله على أنفسهم، وأرضهم، وملتهم، وأموالهم، وحاشيتهم، وعبادتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وأساقفتهم، ورهبانهم، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير"..

وكذلك فعل "عمر" فى العهد الذى أعطاه لنصارى المدائن وفارس:

".. أما بعد فإنى أعطيتكم عهد الله وميثاقه، على أنفسكم وأموالكم وعيالكم ورجالكم وأعطيتكم أمانى من كل أذى، وألزمت نفسى أن أكون من ورائكم ذابا عنكم كل عدو يريدنى بسوء وإياكم.. وأن أعزل عنكم كل أذى.. ولا يغير أسقف من أساقفتكم، ولا رئيس من رؤسائكم ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم، ولا يدخل شىء من بنائكم إلى بناء المساجد ولا إلى منازل المسلمين، ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحرب، ولا يجبر أحد من النصارى على الإسلام عملا بما أنزل الله فى كتابه ..

---

[١] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة.

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾.

ولى شرط عليهم: ألا يكون أحد منهم عينا لأهل الحرب على أحد من المسلمين فى سر ولا علانية، ولا يؤوا فى منازلهم عدوا للمسلمين، ولا يدلوا أحداً من الأعداء ولا يكاتبوه.. إلخ".

فى أى دنيا غير دنيا الإسلام نجد هذا التسامح الفريد..؟

وأين هذا مما صنعته أسبانيا المسيحية بالأمس مع مسلمى الأندلس الذين ورثوا الأسبان حضارتهم ومدنيتهم..؟

وأين هذا مما تصنعه قوى التبشير المسيحى العالمية اليوم من كيد للإسلام وللمسلمين..؟!

ولنقرأ الأمان الذى أعطاه أمير المؤمنين لأهل ايليا، وهذا نصه كما يرويه الطبرى:

"هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان.. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم. ألا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها شيء ولا من صليبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون فى دينهم، ولا يضار منهم أحد".

ألا إن أعظم هبات الإسلام لهو التسامح، وهو لا يضفى رواءه على قريبى العهد من الرسول وحسب بل وعلى كل من اعتنق الإسلام وفهمه ووعاه مهما تباعدت به العصور.

وهذا هو الدكتور حسن إبراهيم رحمه الله يحدثنا عن كرامزن أن "أزيك خان" وهو أول من أدخل الإسلام إلى روسيا، وكان شديد

التحمس له ودائب الدعوة إليه، علمه الإسلام كيف يكون التسامح وغرس فضيلته فى فؤاده فتسامح مع رعاياه من المسيحين ومنحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم، وسمح لهم بالتبشير بدينهم ونشره فى بلاده وحرر بهذا وثيقة تقول:

"إن كنيسة بطرس مقدسة، ولا يحل لأحد أن يتعرض لها، أو لأحد رجالها بسوء، ولا أن يستولى على شىء من عقارها أو متاعها، ولا أن يتدخل فى أمورها، ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها فهو مجرم أمام الله، وجزاؤه منا القتل"(١).

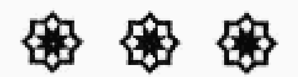
ألا حيا الله الإسلام وحيا أهله وذويه فى كل زمان ومكان.

إن هذه الوثيقة التى نطالعها الآن كتبت فى القرن الرابع عشر الميلادى وهى شبيهة بالعهد الذى قطعه على نفسه أمير المؤمنين فى السنوات الأولى من القرن الأول الهجرى..!!

وعلى طول ما بين العهدين من قرون، فكأنهما عهد واحد، لأنهما يسقيان بماء واحد، وينهلان من روح واحد هو روح الإسلام العظيم الذى قال دستوره الخالد:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.



---

(١) التاريخ السياسى للإسلام جـ١.

١١

والإسلام بعد ذلك دين حضارة لا يعرف التخلف ولا الجمود، وإذا كانت الحضارة تبدأ بالمعرفة والعلم، فقد علم الإسلام أبناءه أن يركضوا إلى العلم ركضا، ويتزاحموا حوله بالمناكب، ويقبلوا عليه إقبال العاشق المشغوف.

والعلم الذى يحض الإسلام أتباعه عليه هو علم الدنيا والآخرة. العلم الذى يزكى النفس ويسمو بالروح ويعرف المسلم حق الله عليه. ثم العلم الذى يجعل الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق الحضارة فى شتى مجالاتها وصنوفها النظيفة.

يقول القرآن الكريم:

﴿ **قُل هل يَستوِى الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لا يَعلَمُون** ﴾..؟

ثم يتوج العلماء بتاج الكرامة حين ينعتهم بأنهم من أكثر الناس معرفة بالله وخشية له:

﴿ **إنَّمَا يَخْشَى اللهَ من عِبَادِه العُلمَاء** ﴾.

والله رب العالمين يدعو عباده إلى السعى نحو العلم ويعدهم بأن يمدهم من فضله بما لا يستطيعون الوصول إليه من علوم الدنيا وعلم

الآخرة إلا بما يهبهم من عطائه، ويمدهم من علمه..

﴿ ويُعَلِمَكم مَا لَم تَكُونُوا تَعْلَمُون ﴾.

ويحضهم القرآن الكريم على إفراغ الوسع فى محاولة كشف المجهول مخبراً إياهم أن لكل نبأ مستقراً، ولكل مجهول نهاية يحوله العلم بها إلى معلوم.

﴿ لِكُلِ نَبأ مستقر، وَسَوفَ تَعلَمُون ﴾.

ويدعو أتباعه إلى الاستزادة من العلم دون توقف أو تردد:

﴿ فَاسألوا أَهْلَ الذِكْرِ إن كُنتُم لا تَعْلَمُون ﴾.

ويمن الله على عباده بأنه:

﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَم يَعْلَم ﴾.

وإذا كان المعلم هو الله فمعنى ذلك أنه لا نهاية لما سيصل إليه الإنسان من علم ومعرفة، وهذا هو السر العظيم الذى يقف وراء المعرفة الإنسانية التى لا تعرف النقصان أبدا ولا التوقف، وإنما هى من مزيد إلى مزيد.

ذلك لأن الله هو المعلم ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَم يَعْلَم ﴾ والمعلم سبحانه لا حدود لقدرته ولا منتهى لعلمه، ولهذا نجده سبحانه يقدم إلينا واحدا من عباده الصالحين فاق غيره فى العلم بالحياة فيقول:

﴿ وَإِنّه لَذُو عِلمٍ لِمَا عَلمْنَاه وَلَكِن أَكثَرَ النَاسِ لا يَعلَمُون ﴾.

وعظمة المسلم ماثلة فى أن الله سبحانه دثره بالعلم الذى يعرفه به وبالعلم الذى يكشف له سعادته فى حياته ودنياه.

وإذا يعلم الله ضعف النفس البشرية وانخداعها بمظاهر الحياة

الباطلة وركونها إليها فقد دعا عباده المؤمنين أن يجعلوا لشغفهم بالمعرفة كوابح و"فرامل" حتى لا تسلك بهم مسالك الشر والتدمير، وألا ينقادوا فى غمرة حماسهم وراء العلم الذى يزخرف الحياة ناسين العلم الذى يصلهم بالله ويعرفهم به.

أجل - إن القرآن ليدعو المسلمين ألا يكونوا من الذين:

﴿ يَعلَمُونَ ظَاهِرًا مِن الحَياةِ الدُنيا وَهُم عَنِ الآخِرَةِ هُم غَافلون ﴾

وهنا يبين الفارق الكبير بين الحضارة التى تشاد على قواعد من علم مغرور ملحد، والحضارة التى تشاد على علم ورع خاشع لله رب العالمين.

إن الأولى تتحول إلى وباء يفتك بالبشرية ويضع مصيرها على الهوة الفاغرة.. بينما الثانية ترتقى بالإنسان روحا ومادة إلى آفاق مأمونة.

ويقودنا الرسول عليه الصلاة والسلام فى طريق المعرفة والعلم قودا حكيمًا ودءوبا. ويعلمنا فيقول:

"من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله به طريقًا إلى الجنة".

والعلم النافع المضىء الذى يهدى القلوب إلى الله، ويهدى العقول إلى الصواب، ويحقق للحياة الإنسانية السلام والأمن والتقدم وعافية الحياة هو العلم.. وهو ليس نافلة يتعلمه من يشاء بل هو كما يقول الرسول:

"طلب العلم فريضة على كل مسلم".

ويجعل المعاناة فى تحصيلة جهادًا.

"من خرج فى طلب العلم، فهو فى سبيل الله حتى يرجع" .

بل أكثر من ذلك يقول عليه السلام:

"من جاء أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة" .

"إذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات شهيداً" .

"لا حسد إلا فى اثنتين:

- رجل آتاه مالا فسلطه على هلكته فى الحق
- ورجل آتاه الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها" .

"إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" .

"إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع" .

ونعود إلى سؤال ألمحنا إليه من قبل، هو أى علم يريده الرسول؟

إنه - أولا - العلم الذى يفسر للناس أمور دينهم، ويدفع حياتهم فى طريق الفضيلة والخير، ويوثق اتصالهم بالله.

"تعلموا الفرائض والقرآن، وعلموا الناس، فإنى مقبوض" .

"نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها، ويلغها من لم يسمعها" .

فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتى فى الصدارة من كل العلوم.

ويعدئذ يجىء العلم بكل أنواعه.. العلم الذى يشيد الحضارات،

وينفع الناس وينمى عطاء الحياة.

فالعلم الذى يقود خطى الحضارة فى رشد، ويسهم فى دفع التقدم الإنسانى وينتفع به فى توفير الراحة والخير للناس ـ المسلمون مدعوون إليه.

وفى هذا المجال يقول الرسول عليه السلام:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث:

ـ صدقة جارية.

ـ أو علم ينتفع به..

ـ أو ولد صالح يدعو له.."

فقوله عليه السلام [علم ينتفع به] ينتظم علوم الحياة التى تنفع الناس وتيسر لهم وسائل العيش، وتزيد ثراءهم العقلى والروحى.

وهو أيضا المعنى بقول الرسول:

"الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها".

لقد وعى رسول الله قول الله له:

﴿ وَفَوقَ كُلِ ذِى عِلمٍ عَلِيم ﴾.

وقوله سبحانه:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾.

فما هذا العلم الذى لا منتهى لأبعاده ولا حصر لعلمائه؟؟

إنه علم الدنيا والآخرة.. علم النسك وعلم الحياة.. علم الكون بكل ما نستطيع أن نصل إليه من كشوف وأسرار.. العلم الذى تتم به عمارة الأرض، وازهار الحياة ورفعة الإنسان.

"اطلبوا العلم ولو فى الصين".

فلا حدود من تخوم الأرض، ولا من تخوم العقيدة ترد المسلم عن أخذ العلم النافع والحكمة الصادقة والمعرفة المتساوقة.

فالجهل هو الخطيئة الكبرى التى يعيذ الرسول منها أمته.

وكما يقول الأحنف:

"كل عز لا يوجد بعلم، فإلى ذل مصيره".

ولقد وعى علماء الإسلام روح التوجيه النبوى الكريم فتفوقوا فى كل صنوف العلم وتألقوا ثم علموا الدنيا، وشادوا الحضارات.

وهكذا بلغ العلم أرفع المنازل فى الأمة المسلمة والدولة المسلمة.

وهكذا كان فى كل عصور التاريخ الإسلامى يقود خطى الموكب العظيم الذى ظل يحمل راية التوحيد والإيمان والفضيلة والخير والحضارة والتقدم قرونا تلو قرون.

وما نحسب العلم بلغ الغاية فى رشده وهديه ونفعه للناس، وإحيائه للروح وللعقل وللضمير دون انحراف أو زيغ أو تخريب مثلما بلغ من ذلك كله فى ظل الأمة المسلمة.. خير أمة أخرجت للناس!!

* * *

فالدولة المسلمة، وهذا مكانها من العلم، وهذه منزلة العلم فيها، أولى الدول بتبنى قضية الحضارة الإنسانية والغيرة عليها والإسهام فى بنائها وأخذ الحظ الوافر منها.

وعبر التاريخ نلتقى بالحضارة الإسلامية وهى توقظ العالم من سباته وتعلم أوروبا وغير أوروبا أن تستجيب لدعوة التمدن والتقدم وأن تأخذ مكانها - ولو فى آخر الصفوف - بين موكبها الهادر الذى كانت تقوده حضارة الإسلام وترعاه.

إن الجانب النظيف من حضارة أوروبا والغرب إنما ولد في حجر الحضارة الإسلامية وتغذى بلبانها.

ومن دمشق، وبغداد، والقاهرة، وغرناطة، وقرطبة وغيرها كانت أنوار الحضارة تشع منادية إليها القاصدين والرواد من أوروبا وغيرها.

وكانت حضارة تقوم على المادة والروح دون أن تسلم أحداهما للأخرى، ومهما يكن من أمر الانفلات الأخلاقي الذى أصاب الدولة المسلمة فى بعض مراحلها فإن الجانب الروحى بقى له نفوذه ودعاته والداعون إليه سرًا وجهارًا.. وليلاً ونهارًا..

لقد اكتشف العقل الإسلامى فى ظل دولته وبمعونتها أروع الكشوف فى جميع فروع المعرفة البشرية وفى نفس الوقت كان ثبات إيمانه وشموخه أمرًا ملحوظًا ومثيرًا.

كنا أساتذة العالم فى التجارة، وفى العلوم بشتى أنواعها، وفى الكشوف والمخترعات، فى الطب.. فى الأدب.. فى الفن.. فى العمارة.. فى الفلك.. فى الكمياء.. فى الصناعة.. فى الزراعة.

ويوم كان تجار المسلمين يطوفون العالم برًا وبحرًا بتجارتهم، كانت أوروبا تقذف بقراصنتها يعيشون فى سلواحلها فسادًا ونهبًا وتخريبًا.

إن أعظم المخترعات التى تبهرنا اليوم يرجع إلى آبائنا المسلمين العلماء فضل كشفها.

تقول "زجريد هونكه"[1].

"إننا نقف الآن مشدوهين متعجبين أمام تطور فن الصواريخ

---

[1] كتاب "شمس العرب تشرق على الغرب".

العظيم دون أن نسائل أنفسنا إلى من ندين بهذا الاختراع".

ثم تثبت أنهم آباؤنا العرب المسلمون هم الذين يدين لهم الغرب والشرق بهذا الاختراع إذ كانوا أول من وضع نظرية تركيب البارود المندفع فى القرن الثانى عشر.

وعلوم الرياضيات والفلك والبصريات والحساب والجبر والأرقام وعلم طبقات الجو - الأرصاد الجوية - وعلم الميكانيكا.. واختراع الأجهزة الدقيقة المذهلة التى لا يكاد العقل يصدق أنها اخترعت فى ذلك العصر البعيد.

وفى ظل الدولة المسلمة قام الخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى.

وحسب ابن الهيثم أن نظرياته فى علمى الفيزياء والبصريات لا تزال حتى يومنا هذا تحكم العقل الاوروبى الذى يسير فى ضوئها.

وحسب البيرونى أنه سبق "كوبرنيكس" وغيره.. سبقهم بخمسمائة عام إلى اكتشاف أن الأرض تدور حول نفسها، ثم تدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس، وأن الشمس ليست السبب فى تفاوت الليل والنهار بل هى دورة الأرض ذاتها.

وكان عندنا ابن سينا والفارابى وعمر الخيام.. ومن عجب أننا لا نعرف من عمر الخيام إلا جانبه اللاهى، بينما الغرب وأوروبا يعرفان أنه الرجل الذى طور علم الجبر وأوصله إلى قمة عالية من الازدهار.

"بل إن من الإنصاف والحق أن نقول: إن عمر الخيام قد وفق فى الارتقاء بعلم الجبر إلى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثيل إلا على يد الفيلسوف الفرنسى "ديكارت"[1].

---

(١) المرجع السابق.

ومنا "ابن رشد" الذى يقول عنه ج. بيورى فى كتابه "حرية الفكر".

"إن أول موجة من النور أضاءت أوروبا كانت مؤلفات ابن رشد".

وبينما كان الطب فى أوروبا واقعًا تحت أيدى الدجالين من رجال الكهنوت حيث يعالجون بالشعوذة جميع أنواع الأمراض حتى الجراحة كانت الدولة المسلمة تزخر بالأطباء المتقدمين والبارعين فى شتى التخصصات.

تقول "زجريد هونكه":

"أين هو البلد الذى عرف الطب بشموليته وعمقه وازدهاره كما كان الطب العربى؟ وأين هى الدولة التى عرفت مثل هذا الجمع الكبير من الإخصائيين فى شتى حقول الصحة، وتركيب الأدوية والعقاقير كما كانت الحال عند هذا الشعب؟ وهل كان للمستشفيات الحديثة فى الأصقاع العربية آنذاك مثيل فى أى طرف من أطراف الأرض.؟.. إن وسائل العلاج عندهم تتحدث ببلاغة عن عظمة أبحاثهم. كما أن علم الصحة عندهم أروع مثل يضرب.. ولم العجب والدهشة، والوضع كان كما نعلم.. ألم يطلب الفرنجة مساعدة العرب الطبية، ويلحوا فى التماسها"[1].

إننا حين نقرأ لكتاب أوروبا والغرب عن حضارتنا فى الطب نجدهم يتحدثون عن مستشفيات كأعظم وأنظف ما وصلت إليه أوروبا اليوم، كما يتحدثون عن أطباء لم ير العالم لهم مثيلاً، وإنهم ليتحدثون عن الطبيب المسلم أبى بكر محمد بن زكريا الرازى فيصفونه بأنه "أحد

---

[1] المرجع السالف.

أعظم أطباء الإنسانية إطلاقًا"..!!

ويهيمون هيامًا شديدًا بالعالم المسلم "ابن النفيس" من علماء القرن الثالث عشر الميلادي - وهو أول عالم على ظهر الأرض نفذ ببصره إلى أخطاء "جالينوس" ونقدها، ثم اكتشف نظرية الدورة الدموية.

وعندنا ابن مسكويه وابن الخطيب والطبيب الطبرى الذين أبدعوا فى مجال الصحة والطب.

وكم من مكتشفات هائلة اكتشفها علماء الإسلام والعرب، انتحلها وادعاها أوروبيون وظاهرهم على ادعاءاتهم كتاب وعلماء أوروبيون..!!

ولسنا نحن الذين نقرر هذه الحقيقة المؤسفة بل تقررها المستشرقة الألمانية "زجريد هونكة" فتقول:(١).

"هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن.. هذه التحقيقات العلمية الرائعة التى قدمتها العبقرية العربية الإسلامية هدية منها للإنسانية عامة، ولأوروبا خاصة، هل رددناها إلى مصدرها، وأرجعنا فضلها إلى صانعيها.؟!

"لقد كان الأمر على العكس تمامًا، فإن أغلب الاكتشافات العربية [الإسلامية] حملت معها، ولا تزال تحمل حتى يومنا هذا أسماء إنجليزية، أو فرنسية، أو ألمانية".

لقد ظلت مؤلفات آبائنا المسلمين تدرس فى أوروبا مئات السنين ولم يكن فى أوروبا كلها عالم واحد لم ينهل - فى مجال تخصصه - من كتب آبائنا السالفين.

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب.

لقد كان آباؤنا المسلمون سادة حضارة من أعظم وأروع حضارات العالم وليس ثمة ما يمنع، بل هناك ما يدفع لكى نستأنف مسيرتنا الحضارية فى عالم ينقصه مما نملك، الشيء الكثير.

فالدولة المسلمة دولة حضارة وتقدم، وهى مسئولة عن تقدم الحياة مثل مسئوليتها عن دين الله.

يقول مؤلف "الإسلام قوة الغد العالمية":

"إن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الأحداث التى مرت بالمسلمين فى القرون الأخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية.

"إن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة ومشاعرهم. وستظل هناك مادام ثمة شعوب إسلامية ربطت مصيرها بمصير الإسلام، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها هو الإسلام.

"إن روح التعاطف والتوادد بين المسلمين هو السبب الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق "القومية الإسلامية".. وإنه من الممكن للمسلمين أن يتقدموا فى العلم والتكنولوجيا كما تقدم الأوروبيون وهم يومئذ لن يكونوا بحاجة إلى رباط يجمع شملهم سوى الإسلام وهو قائم فعلا ولم يفقدوه بعد".

إن عظمة الإسلام الفريدة ماثلة فى أنه يسير بالتقدم المادى والتقدم الروحى فى طريق واحدة. وهذا يجعل مستقبله مستقبلا للبشرية كلها.. ذلك أن الحضارة الغربية المعاصرة تعانى هذه الآفة القاتلة، وهى أن

التقدم المادى يمضى هادرًا وسريعًا بينما تقدمها الروحى متخلف جدًا وبطىء كذلك.

ويوم يكتشف الوعى الإنسانى حاجته إلى المواءمة بين تقدمه المادى والروحى سيجد الإسلام فى انتظاره يمنحه حضارة المادة وحضارة الروح، ويهديه سواء السبيل.

وهذه حقيقة يجب على المسلمين أن يستعدوا لتقبلها وحمل تبعاتها.

والدولة المسلمة فى عصرنا هذا مطالبة بأن تصادق أكثر وأكثر حركة العلم.

ونحن نعنى بحركة العلم ذلك التطور الخلاق الذى يقطع الحياة وثبًا مخلفًا وراءه العمى الذين لا يبصرون، والصم الذين لا يسمعون والمقعدين الذين لا يواكبون ركبه ولا يتابعون خطاه.

ولا يعنى مسايرة حركة العلم والحضارة أن نفقد شخصيتنا الإسلامية وتقاليدنا، ونذهب نقلد الغرب فى شكليات الحياة المنحلة ومظاهرها الماجنة والرخيصة. بل يعنى أن نحيا فى مستوى تعاليمنا وديننا وتقاليدنا حياة متحركة ومتجددة وملتقية مع روح العصر وإنجازاته الجادة.

على الدولة المسلمة اليوم - كل دولة أن تتسلح بأسلحة العصر لا عسكريا فحسب، بل فى كل مجالات الحياة..

عليها أن تقوم بتصنيع مواردها وبلادها، وأن تأخذ بحظ وافر من أحدث ما وصل إليه العلم والتكنولوجيا أولاً بأول، وأن تتيح لشبابها فرصة التزود الكامل بالمعرفة والعلوم، ونحن فى هذا لن نكون مقلدين

لغيرنا ، بل سنكون قد أستأنفنا حضارتنا التى غذت العالم من قبل وعلمته لغة الحياة.

علينا نحن المسلمين أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن نسلم رقابنا للأغلال، وديننا للضياع، وروحانيتنا للجفاف.

علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لا يزال قائمًا . وأن الإسلام الذى نحمل لواءه لم ينته ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر، كما لن تنتهى حاجة البشرية إليه.

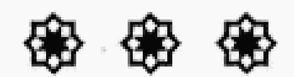
وعلينا أن نعمق إيماننا بأن الإسلام:

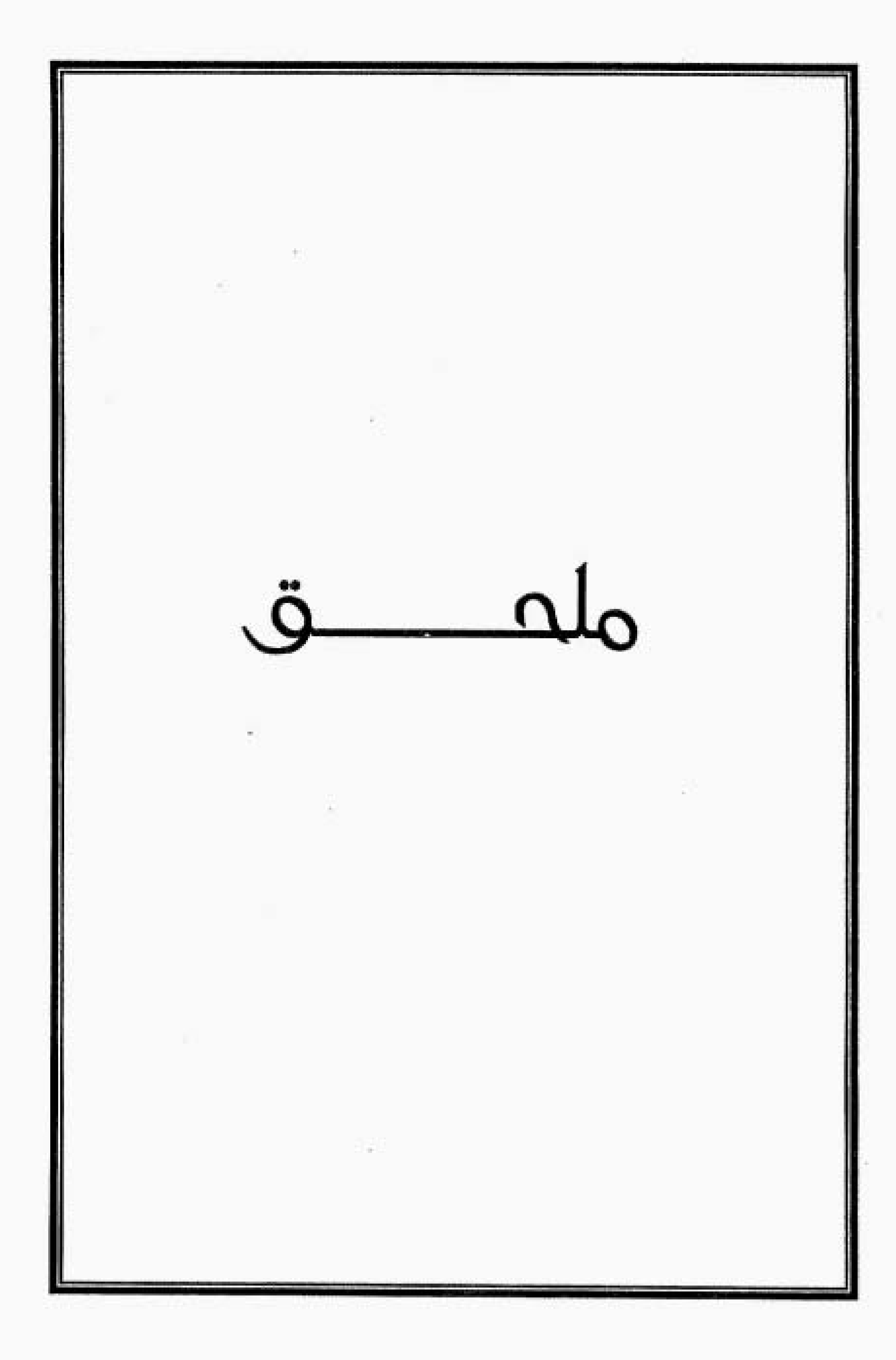
دين، ودولة..

حق، وقوة..

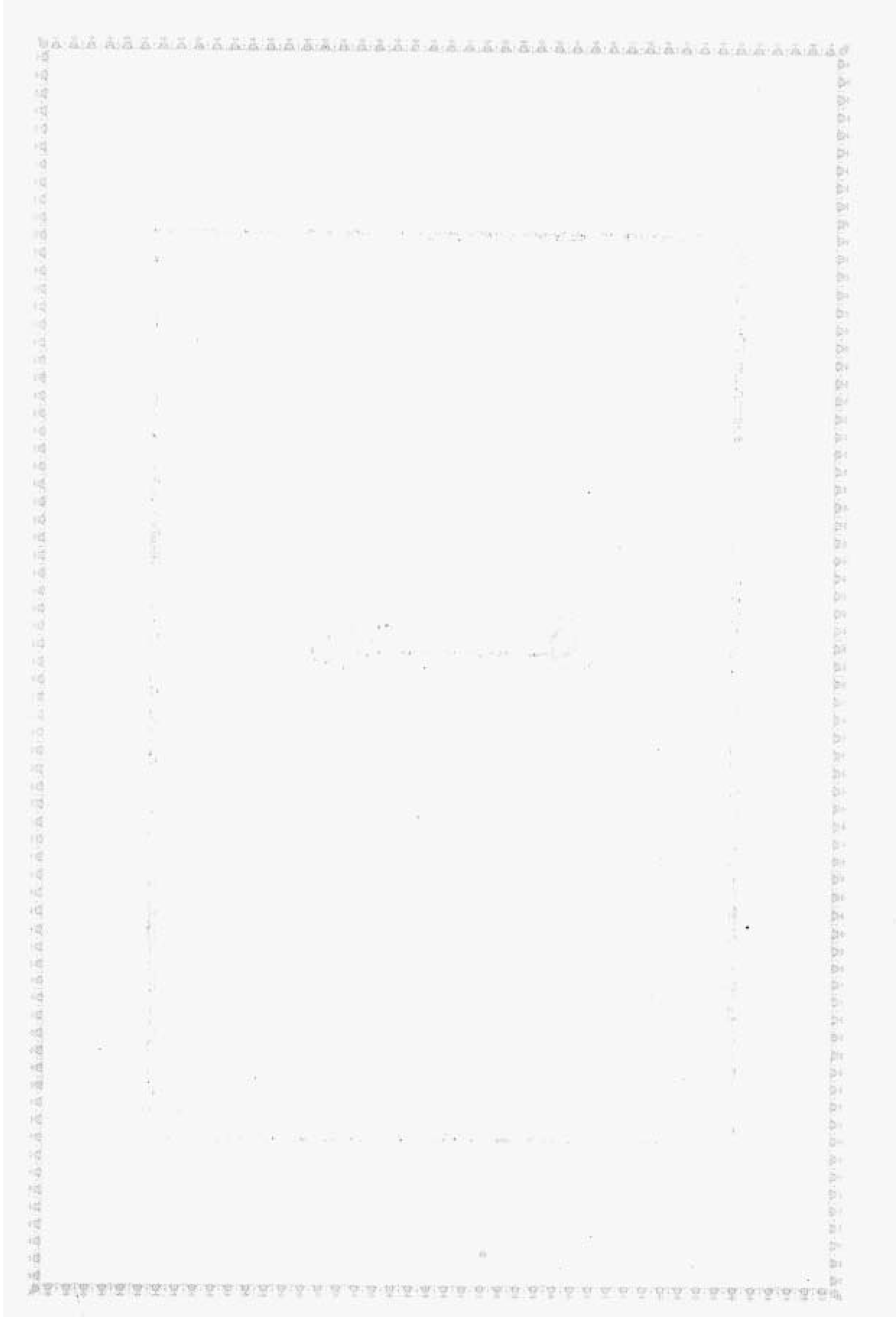
ثقافة، وحضارة..

عبادة، وسياسة..





ملحق



بعد الفراغ مـن هـذا البحث يطيب لـى أن أضـرب مثـلا ، وأقـدم نموذجًا للدولة المسلمة وللحاكم المسلم.

ولن أختار هذا النموذج من بين الخلفاء الراشدين، فقد يقال: تلك أمة قد خلت.. وذاك طراز شهد الوحى ورباه الرسول. سـأختار النمـوذج من العصر الأموى، ذلك العصر الذى شهد انحرافات بالغة، والذى تنبـأ له الرسول بأنه سيكون نهاية عصر الخلافة الراشدة وبدايـة عصـر الملـك العضوض.

سأختار "عمر بن عبد العزيز"..!!

الرجل الذى حاول نقل عصر الوحى بمثله وفضائله إلى دنيا هائجـة مائجة، مفتونة مضطربة، متلفعة بالظلم والقهر، متعفنـة بـالتحلل والـترف. ثم نجح فى محاولته نجاحًا منقطع النظير..!!

لقد جعل من الملك العضوض الذى شاده الأمويون عبر ستين عامًـا ـ قبل مجيئه ـ خلافة أوابة، بارة، عادلة، تمثل كل فضائل وسـمات عصـر النبوة والوحى.

ومتى..؟

ليس فى عشرين عامًـا ولا عشـرة أعـوام.. بـل فـى عـامين، وخمسـة

أشهر، وبضعة أيام..!!!

وهذا النموذج يرينا "روح" الدولة المسلمة و"ضميرها" كما يرينا شكلها الذى كان مثاليا بالنسبة لعصرها.

بيد أنه لا يرينا الشكل "النهائى" للدولة المسلمة.. ففى عصرنا هذا لابد للشكل أن يختلف بقيام المؤسسات الدستورية، والمجالس النيابية التى تضبط دور الحاكم، كمنفذ لأحكام الله، ووكيل عن الأمة ولابد من صحافة حرة، ومعارضة حقيقية وفعالة، يخشاها الحاكم ولا تخشاه، ويتلمس عندها الصواب والصدق وسواء السبيل.

إن النموذج الذى يقدمه لنا "عمر بن عبد العزيز" يرينا فى أية آفاق رفيعة شامخة تخلق الدولة ويخلق الحاكم حين يكون الإسلام الحق هو المنهج، وهو القدوة، والإمام..!!

ولن أقدم هذا النموذج فى كتابة جديدة. بل سأستعير فصلا من كتابى "معجزة الإسلام: عمر بن عبد العزيز" ذلك الفصل الذى كان الكتاب قد تضمنه تحت عنوان "المنهج".

راجيًا أن يكون تتمة مباركة لحديثى هذا عن - الدولة فى الإسلام..

* * *

المنهج

كتب إليه واليه على خُراسان يستأذنه في أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلاً في رسالته للخليفة : "إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط" ..

فكان رده التَّقِيُّ الحازم :

" كذَبتَ ..

بل يُصلحهم العدل والحقّ ، فابْسُطْ ذلك فيهم ، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين " .. !!!

* * *

العدل ، والحقّ .. !!

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحِب المستقيم ستمضي خُطاه .. آخذاً معه على ذاك الطريق جميع الناس - أمراءهم ، وعامَّتهم .. أغنياءهم ، وفقراءهم .. أقوياءهم ، وضعفاءهم ..

والخليفة ، الذي نراه دائم البكاء ، بل النحيب ، كلما ذُكر الله واليوم الآخر .. والذي ينتفض تحت وقع تُقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسَبُه لا يصلح لغير الصومعة يتحنَّثُ فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه وأسلوبه في الحكم، حيث تُطِلّ علينا من وراء دموعه المُنثالة روح عالية تناضل في جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحقّ .. وحيث تُطِلُّ علينا كذلك بصيرة نافذة لا يُفلت من ضيائها شيء ، وإرادة حازمة لا يَهُولُها صعب ، ولا يُجْفِلُها خطر ...

وفجأة سنرى العينين السابحتين في دموعهما دوماً ، تُحَدِّقان كعينَي الصقر .. وتُرسِلان بريقاً أخّاذاً يُقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين ليس إلى خداعهما سبيل .. !!

* * *

إن المصاعب المتطاولة ، والأخطار المحدقة ، والمؤامرات المتساوقة ، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحقّ إلا تقدُّماً ومضاء .

فَلْتُغَنِّ العواقب لنفسها ، أما هو فلن يبالي بما كان ولا بما سيكون منها .. بل سيضع يمينه في يمين الحقّ ، ويمضي معه إلى حيث يُدمدمان معًا على مظالم وظلمات الأعوام الستين التي سبقته في الحكم الأموى.. وإلى حيث يجعلان ظُلُماتِها نوراً ..

وهجيرها فردوسًا .. وترفُها قناعة .. وانحلالها ورَعاً . واستعلاءها تواضعاً .. وقهرها رحمة . ورُعْبَها أمْناً ..

وبين يَدَيْ عَزمِه الرّباني القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة ، والتحدي :

"والله ، لو لم ينهض الحقّ ويُدْحَض الباطل إلا بتقطيع أوصالي وأعضائي ، لأمْضَيْتُ ذلك وأنا سعيد " !!

" ووالله ، لو لبثتُ فيكم خمسين عاماً ، ما أقمتُ إلا ما أريد من العدل " .. !!

فلنتابع منهجه لنرى .

ولكن علينا ألا نَدَعَ التفاصيل الكثيرة تَشغلنا ببهرها عن الأسس والقواعد .

وعلينا أن نقتصد في ذكر الوقائع والمشاهد التي تحكي خصائص المنهج وسماتِه ، حتى يفيء علينا هذا التركيز في الرؤية تركيزاً مُماثلاً في نشوة العقل وغبطة الروح .

أي إننا سنكتفي من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التي تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور في :

* نظرته إلى دور الدولة ووظيفتها ..
* نظرته إلى دور الشورى ووظيفتها .
* نظرته إلى دور المال ووظيفته .
* موقفه من وحدة الأمّة وسلامتها .
* أسلوبه في العمل .

* * *

فأولاً: الدولة قدوة ..

إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون أمراً مذكوراً ، فتلك سُنّة مألوفة معتادة : أن تحمي القوة القانون .

أما الحكام الذين يحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فأولئك الذين

يجاوزون المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجزات .

ولقد كان "ابن عبد العزيز" واحداً من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ، إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى .

والدولة عنده تتمثل في كل الأجهزة العاملة ، لكن يأتي في المقدمة دائماً :

[١] الخليفة بوصفه رئيس الدولة .

[٢] الولاة بوصفهم حكام الأقاليم .

[٣] القضاة .

[٤] أمناء بيوت المال .

والخليفة - أيُّ خليفة - وإن وضعته وظيفته ومسئولياته على رأس الدولة ، فإنه يظل عاجزاً عن أداء دوره ما لم يقف معه في مستواه - أو قريباً من مستواه - وُلاته وقضاته وأمناؤه على الأموال العامة .

ها هو ذا "عمر" يقول :

"إن للسلطان أركاناً لا يُثبت إلا بها .

"فالوالي ، ركن .

"والقاضي ، ركن .

"وصاحب بيت المال ، ركن .

"والركن الرابع ، أنا" .. !!

وإذن ، فلكي تكون الدولة قدوة في حمل دين الله وحقوق الناس ، لابدّ من أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الأربعة مجتمعين :

الخليفة ، ووُلاته ، وقُضاته ، وخزنته ..

ولكي تكون الدولة قدوة ، لابدّ أن تكون بمسئوليها جميعـاً ، وعلـى رأسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورائده ..

وهكذا راح "عمر" يضع الدولة كلها ـ وهو على رأسها ـ فـي مكـان القدوة ، حاملةً وحاملاً معها كل ما تلقيه القدوة من مسئوليات ، وبـاذلاً كل ما تتطلبه من تضحيات .

وقبل أن يأمر ولاته وقضاته ، وخَزَنتَه ، بدأ بنفسه .

لقد تَلوْنا من قبل ، كلمته العظيمة :

"لست إلا كأحدكم ..

غير أني أثقلكم حِملاً " !!

وهنا ، نرى طريقته في وضع هذا المبدأ موضـع التنفيـذ الحاسـم ، الحازم ، الفريد ..

لقد كان دخله السنوي حتى اليوم الـذي وُلّـي فيـه الخلافـة أربعيـن ألف دينار .. هي حصيلته من مُخصّصاته كأمير أموي .. ومن الأرض التي كان يملكها . ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبد العزيز بن مروان .

والآن ، تتفتح بصيرته على الحقيقـة العميقـة ، فـيرى أن هـذا الـثراء الفاحش الذي يمتلكه أمراء بنـي مـروان ـ وهـو معـهم ـ لـم يبلغـوه بعـرق الجبين .. وما هذه الثروة المتمركزة في أيدي حفنات من الأمراء والسّادة، إلا حقوق الملايين وأقواتها سُلبت منها بغير حقّ ، وبغير سلطان .. !!

ومن فَوره ، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة مخصصات الأمراء كافـة ، ومُخصصات حرسِهم وخدمـهم ، وقـراره بـنزع الإقطاعيـات الزراعيـة منـهم جميعاً ، وردّها إلى بيت المال ..

وبدأ بنفسه ، فتخلّى عن جميع أملاكه وأمواله !! حتى أرض "فَـدَك"

في "خَيْبَر" وكانت خير ممتلكاته وأثمنَها ، ولم يكن أحد أقطعه إياها ، بل ورثها عن أبيه .

ولكنه سأل نفسه : ومن أين جاء بها أبوه .. ؟!

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم "خيبر" ، فخصَّصها لأبناء السبيل ، وظلت كذلك حتى ملك الأمر معاوية ، فوهبها لمروان .. ومن مروان ، وصلت إلى ابنه "عبد العزيز" والد "عمر" .

تقول: حتى هذه الأرض ، تخلّى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمَّها لملكية الدولة ، وأن يصرف ريعها ونتاجها ، حيث كان يُصرف على عهد الرسول ﷺ وخلفائه .

ليس ذلك فحسب .. بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين . !

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بحُرّ ماله ، ولم تكن تُغِلّ أكثر من مائتي دينار في العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتا دينار في العام ، لرجل كان دخله منذ أيام لا غير - أربعين ألف دينار .. !!

مائتا دينار ، لحاكِم أعظم ، وأكبر ، وأغنى إمبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعَرضه ، وتعيش معه أسرته التي كانت هي الأخرى - منذ أيام - لا غير ، تخُبُّ في النعيم خَبًّا .. وتَعُبُّ من المباهجَ عَبًّا .. !!!

ولكنْ ، أيُّ بأس ؟!

أليس قد رفع الحقَّ شريعة والعَدل منهاجاً ؟!

فليكن حَسْبُه ألا تسقط الراية من يمينه . وليكن حسْبه أن يُحلِّق بـها في مستوى تتقطع دون بلوغه الأنفاس .. !!

كل أرضه تركها للدولة .

كل ثروته النقدية ، دفعها إلى خزانة الدولة ..

بل لقد جمع ثيابه وحلله الرافهة ، وحُلل زوجته وأولاده ...

ثم جمع مراكبه وعُطوره ومتاعه ، ثـم دفـع ثمنـها الـذي بلـغ ثلاثـة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال .. !!

ثم حرم نفسه حتى حقّها المشروع فـي راتـب الخلافـة الـذي كـان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثيه ، لكنه رفضه جميعـاً إلـى آخـر درهم منه .. وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة ـ مائتي دينـار فـي العـام ـ بواقـع ثلاثـة أربـاع دينـار فـي اليوم ، لأمـير المؤمنيـن وزوجـة أمـير المؤمنين، وأولاد أمير المؤمنين . !

أفما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعبـاء القـدوة ، تاركـاً أهلـه وأولاده يحيون ولو في مستوى حياة أوساط الناس .. ؟؟

إنه يعتبر هذا ـ لو حدث ـ احتيـالاً علـى المسئولية ، وهروبـاً مـن تبعات القدوة ، ويرى النار تمدُّ إليه ألسنتها اللاهبة ، لتطوّقه حساباً لـه وعقاباً .. !!

ومن ظن أننا نبالغ في التصوير ، ونُسرف في صبـغ الألـوان فليطـالع هذه الواقعة :

لقد عاد يومًا إلى داره بعد صـلاة العشـاء ، ولمـح بناتـه الصغـار، فسلّم عليهن كعادته ، وبدلاً من أن يُسَارِعْنَ نحوه بالتحية كعادتهن، رُحْـنَ يُغطّين أفواههن بأكُفّهن ويتبادَرْنَ الباب ..

فسأل : ما شأنهن .. ؟؟

فأجيب : بأنه لم يكن لديهن ما يتعشَّيْن به سوى عدس وبصل .. فكرِهْنَ أن يَشمّ من أفواههن ريح البصل ، فتحاشَيْنَه لهذا ..

فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

" يا بناتي ..

ما ينفعكُن أن تعَشَّين الألوان والأطايِب ، ثم يُذهَب بأبيكُنَّ إلى النار .. ؟؟ " !!

وترى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين، فترسل إحداهما إلى أبيها ضارعة أن يشتري لها مثلها .

ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين .. ثم يطلب ابنته فيقول لها :

"إن استَطَعْتِ أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهاتين" .. !!

إن مسئولية القدوة ـ إذن ـ لا تنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم .. بل ـ وبحسَب منهجه وتقديره ـ تنال أهله جميعًا ، حتى بُنَيَّاته الصغار ..!

وهكذا راح يحملهم على التضحية في سبيل المسئولية والقدوة ..

اقترب يومًا من زوجته فاطمة ، وقال لها :

"إنك لتعلمين من أين أتاك أبوك ـ عبد الملك بن مروان ـ بهذه الجواهر، فهل لك أن أجعلها في تابوت، أضعه فى أقصى بيت المال، وأنفق ما دونه ، فإن خَلَصْتُ إليه أنفقته فى حاجات المسلمين" .. ؟؟

ولم يكن قد بقي لفاطمة سوى هذه الحُلِيّ وهذه الجواهر ، وهى

عزيزة عليها ؛ لأنها هدية أبيها لها في عُرسها وزَفافها .

ولكنها لا تُجادل زوجها "القديس" حتى في هذه . وتجرِّد منها نحرها، ومعصميها، في غبطة ورضًا .. !!

* * *

ويغادر - أمير المؤمنين - قصور الخلافة ، ويأوي إلى دار متواضعة.. ثم لا تشهد هذه الدار إيقاد النار إلا لِماماً ..

ويأخذ على نفسه العهد ألا يستحدث لنفسه شيئًا من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه ..

يُحدِّث ابن عياش ، فيقول :

كان لعمر مِرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته..

فتهدَّمت إحدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من أهله..

فلمّا جاء "عمر" ووجدها ، سأل : مَن صنع هذا .. ؟

قالوا : فلان . قال : إليَّ به ..

فلمّا جاء قال له عمر : ويحك أنَفِسْتَ على "عمر" أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة .. ؟!

"والله ، لولا أن يكون هدمي لها إفساداً بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه .." !!!

* * *

ويدخل عليه في داره أحد خاصَّته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ،وقد دَثَّر جسمه كله في إزار .. وحَسِبه الزائر مريضاً ، فسأله ، ما باله .. ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

"لا شيء ، غير أني أنتظر ثيابي حتى تجفَّ " ..

قال زائره : وما ثيابك يا أمير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار ..

قال صاحبه : ألا تتخذ قميصاً آخر ورداء ، وإزاراً ؟

قال الخليفة : كان لي ، ثم بَلِيَتْ .. !!

قال الزائر : ألا تتخذ سواها .. ؟؟

وهناك شَرِقَتْ كلماته بدموعه ، وراح يُجهش بالبكاء مسنداً جبهته على راحتيه ، مُردداً آية القرآن الكريم :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾..!!

ولمّا كان يريد للدولة في عهده أن تكون رحمة وحناناً ؛ فقد راح يمزق عنها كل أقنعة الصَّلَف والكبر والتمايُز ..

وأيضاً ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه، بل منعهم كما منع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يَطلُع عليهم ، وقال لهم :

"إنما يقوم الناس لرب العالمين" !!

وناداه يوماً رجل من المسلمين قائلاً : "يا خليفة الله في الأرض" ..

فأخذته الرِّعدة الصالحة ، وصاح في الرجل :

" مَهْ ..

"إني لمّا وُلدتُ أسماني أهلي "عمر" ، فلو ناديتني يا "عمر" أجبتك ..

ولمّا كبرت اخترت لنفسي كُنية ، فكُنيت "أبا حفص"، فلو ناديتني - "يا أبا حفص" أجبتك

ولمّا وليتموني أموركم سميتموني "أمير المؤمنين" ، فلو ناديتني - "يا أمير المؤمنين" أجبتك ..

"وأما خليفة الله في الأرض ، فلستُ كذلك ..

"إنما خلفاء الله في الأرض رسله وأنبياؤه " .. !!

ومنع الدعاء له فوق المنابر في خطبة الجمعة . وأرسل بذلك كتاباً حازمًا إلى ولاته في جميع الأقاليم ، قائلاً فيه :

" مُروهم فليصلّوا على النبي عليه السلام ، وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ..

"ثم ليُصَلوا على المؤمنين والمؤمنات ..

"ولْيَستنصِروا الله ..

"وليكن دعاؤهم لعامّة المسلمين ..

"وليدَعوا ما سوى ذلك " !!

* * *

وإذا كان قد حمل وأهلُ بيته معه مسئولية القدوة على هذا النحو المجيد والفريد.. إذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين؛ فإن هذا لا يكفيه، بل لابدَّ من أن يحملها أيضاً أمراء بني مروان جميعاً طائعين إن شاءوا .. وإن أبوا فكارهين .. !!

لن يَدَعهم يتبذّخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأً ومغنمًا .

إذا كان ولابد ، فلتكن هذه القرابة ملجأ لهم من أطماعهم وشهواتهم .. ومَغْنَمًا بالتزامهم منهج أمير المؤمنين .. !!

أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم في عهده كدنياهم قبل عهده .

لن يَظَلّوا طبقة فوق الأمّة .. ولن يُدْلِف إلى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبل أن تُهِلَّ على الدنيا أيام الأغرّ ابن عبد العزيز .. !!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الإبقاء على بعض امتيازاتهم، فلمّا فشلوا راحوا يُناورون ، ولمّا أخفقوا ، راحوا يهددون .

لكنّ رجل القداسة وقف لهم كالقَدر ، وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعاً أمامه على طريق العدل والحقّ، مُصَفِّياً ترفهم المنهوم .. !!

حدث يومًا أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يدبرون به أمورهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشِنة ، فتنادَوْا واجتمعوا، وقرروا أن يوفدوا إليه صديقًا له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء ..

فكان جوابه لهذا الصديق :

"والله لقد ندمت على هذا الذي أعطيته إياهم ، وإني لأعلم أن في المسلمين من هو أحقُّ به ، وأحوج إليه منهم" .. !

وعاد مبعوثهم إليهم يَقرع أسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم :

" يا بني أُمَيَّة ..

لا تلوموا إلا أنفسكم ، فقد عَمَدْتُم إلى صاحبكم "عبد العزيز بن مروان" فزوجتموه حفيدة "عمر بن الخطاب" ، فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوفاً في ثياب "عمر بن عبد العزيز" ، فلا تلوموا إلا أنفسكم " !!!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الـولاة والقضـاة ، والأمنـاء علـى الأموال العامة - أولئك الذين سمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفـة معـهم يشكلون أركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ؛ بحكم كونهم نوابه في حكم الأقاليم .

والقضاة ؛ بوصفهم أهل الفصل في مصائر الناس بما يملكـون مـن كلمـة الشريعة والقانون .

وأمناء بيوت المال ؛ بما لهم من سيطرة مباشرة على الأموال العامـة وأرزاق الناس .

نقول : كان يرى في هذه المناصب أخطر منـاصب الدولـة وأكثرهـا ثقلاً وحسَاسِية .. كما كان يرى في استقامة أمرها العاملَ الأول والأهـم لتمكين الخليفة من حمل مسئولياته في قسطاس وسدَاد ..

وهكذا راح القديس يستكمل سِماتِ القدوة للدولة ، باختيار وُلاته، وقُضاته، وأمنائه في حرص مَنْ يختار عاقِبَته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد مِنْ هؤلاء مَنْ هـو فـي مسـتوى ورعه، وشموخ نُسكه وفضائله ، فراح يجتهد في العثور على من يكونـون فـي مستوى رجائه وثقته ..

وسارَع ، فعزل جميع الولاة السـابقين الذيـن عملـوا فـي خدمـة المظالم السابقة ، ثم ولَّـى مكانـهم مـن اصطفـاهم للمهمـة الجليلـة ، أمثـال : "أبـي بكـر بن حزم"، و "عبد الرحمن القشيري" ، و "عديّ بن أرطـأة الفِزاري" ، وآخريـن من طرازهم وإخوانهم :

وكان أول ما أوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

"كونوا في العدل والإصـلاح والإحسـان بقـدر مَـنْ كـانوا

قبلكم في الظلم والفجور والعدوان" .. !!

كذلك ، كان أول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الأمينة :

"إني قد ولَّيْتُ عليكم رجالاً ..

لا أقول: إنهم خياركم ، ولكني أقول : إنهم خير مِمَّن هم شرٌ منهم " !!

إنه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان .. وإن كل حركاته وكلماته وقراراته، ومشاعره لتتحرك بقدَرٍ معلوم . !!

ويمضي ولاته إلى أقطارهم ، ويسهرون على مسئولياتهم في ولاء صادق .. تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس .. هذه السيرة التي كان أريجُها ينتشر انتشار الضياء، وعبيرُها يفوح ويهُبّ هبوب الرياح والبُشْرَيات .. !!

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يَبدُر من أحدهم .. وإذا سوّلت لأحدهم نفسُه ، شَفَاها من وساوسها بمجرّد تذكُّر خليفته القديس في حياته الشظِفَة ، ورِقاعهِ البالية !!!

وراح الخليفة يُواليهم برسائله ووصاياه .. وصية من بعد وصية ، وكتابًا وراء كتاب ..

لنقرأ واحداً من هذه الكتب :

" .. أما بعد

فإن من ابْتُلي من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببليَّة عظيمة !!

"فنسأل الله عافيته وعونه ..

"وإني أدعوك أن تقف نفسك في سِرك وعلانيتك ، عند الذى

ترجو به النجاة من ربك ..

"تذكر ما سلف منك من خطأ فأصْلِحه ، قبل أن يتولّى صلاحه غيرُك..

"ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

"وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحًا في دينهم وأعراضهم ..

"واسْتُر كل عَوْراتِهِم ..

"واملك زمام نفسك تجاههم إذا هَويت ، وإذا غضبت"!!

* * *

وكما أحسن اختيار وُلاته أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المال ..

وأمَر هؤلاء وأولئك أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وَسِعت الدولة كلها والأمّة جميعها بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق .

* * *

ثانيا: الشورى ضرورة ..

وننتقل الآن إلى المحور الثاني من محاور منهج الحاكم القديس وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفاً فذاً يمتاز بالعمق وبالشمول .

لقد أدرك أن كل ما يَشيده من دنيا صالحة ، وعالم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وإنمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه .. وتمثَّل

له هذا السياج في توسيع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحقّ فيها ، حاكمين ومحكومين ..

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة .. وبَعْثُ رأي عام ناصح، وصادق ، وشجاع ، ينقد الأخطاء ويُسهِم في إصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد .. لكنّ ديمقراطية الحاكم مع ذلك كانت تَبِينُ وتُسْفِر كالشمس من خلال أسلوبه في الحكم، وطريقته في اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبُّل النقد ، وسماع كلمة الحقّ ، ونظرته إلى الأمّة التي يحكمها ، ومدَى ولائه لحقوقها وحرياتها .

وبهذا المعيار والمِسْبار ، يقف "عمر بن عبد العزيز" في هذا المجال وكأنه نسيج وحدِه !!!

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحقّ بالباطل ، وإن قطعت منهم الرقاب .. جمعهم حوله ، يفكرون معه .. بل لقد كان يوصي بعضهم أن يجلس تِلْقاءه وهو في مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته ، فإن نَسِيَ وقال كلمة ، أو أتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور بإشارة ، تَعارَف وإياهم عليها ..

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست تَرفاً .. وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم ، وشاع الحقّ ، واستَوْثَق العدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم ، وكما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ...

من أجل ذلك ، راح في سرعة الضوء يخلُق رأياً عاما صادقًا أمينًا ،

في طول الدولة وعرضها ..

وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهاً لوجه أمـام مسئولياتهما المشتركة ، بل الواحدة في دَحْضِ الخطأ والتزام الصواب ..

فيكتب للولاة قائلاً :

إنكم تَعدُّون الهارب من ظلم إمامه عاصيًا .

ألا إن أولاهما بالمعَصية الإمام الظالم " !!!

ثم يكتب للناس في مختلف الأقاليم قائلاً :

"أيّ عامل من عمالي رغب عن الحـقّ ولـم يعمـل بالكتـاب والسنّة فلا طاعة له عليكم، وقد صيّرتُ أمره إليكـم ، حتـى يُراجع الحقّ وهو ذميم... !!!"

ويُرسل إلى أحد وُلاته قائلاً :

"قد كَثُرَ شاكوكَ .. وَقَلَّ شاكروك .. فإمَّـا اعتدَلْـتَ .. وإمَّـا اعْتَزَلْتَ " !!

هكذا رفع سلطة الشعب في وجه سلطة الحكم ، وأسلم نَواصِي ولاتـه وعماله للرأي العام يقودهم على طريق الحقّ طائعين أو كارهين .

ولكى يَدْعَمَ هذه السلطة ، فتح أبوابه على مصاريعـها لكـلّ شـاكٍ أو متظلم من حاكمه وواليه .. وأرسل منشوراً موجزًا إلى جميع الأقطار :

"مَن ظلمه إمامه مَظلمة ، فلا إذن له عليّ" .

أي ليقتحم عليّ داري ، غير منتظر إذناً ، وغير واقِف بباب !!

* * *

وإنه ليبهرنا أسلوبه الفريد في بعث الرأي العـام الشـجاع ، وتزكيـة حرية النقد ، وشدّ زنادها إلى أقصاه .

ففي سبيل ذلك ، نراه يرسل من بيت المال جوائز مغرية لكل من يكشف عن خطأ ، ويهدي إلى صواب .. !!!

ولنطالع في إجلال ، المنشور الذي كتبه ، ثم أمر أن يُقرأ على الناس في المواسم والمحافل والمجامع :

"أما بعد ..

فأيما رجل قدم علينا في مظلمة نردّها ، أو أمر يُحيي الله به حقا ، أو يميت باطلاً ، أو يجيء بخير .. فله منا ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يتكابدُه في ذلك من طول السفر وبُعد الشُقّة" .. !!

أليس عجبًا هذا الذي نقرأ ونرى .. ؟؟

ألا ، وإن أعجب من ذلك ، أن بطل هذا كله رجل لم تكن بيئته ولا عصره بقادِرَيْن على تشكيل بَنانِه .

لكنها صِبْغَةُ الله .. ومعجزة الإسلام .. !!!

ولكَم كان صادقًا حينَ قال :

"لو وكَلني الله إلى نفسي لكنتُ كغيري" .

لقد راح يضرب المثل الأسمى والقدوة الباهرة في تَقَبُّل النقد ـ هو الذي لم يعرف الناس له خلال خلافته كلها خطأ واحداً يستأهل النقد والتفنيد ..

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له:

إلى أين ؟ ولماذا ؟!

هنالك يُربّتُ كَتِفَهُ ، ويُدنيه منه ، ويقول له :

"زِدْني يا أخي ، جزاك الله خيراً "!!

إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء ألسنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلاً ..

قَدِمَ عليه وفد من المدينة يومًا ، وتقدَّم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم ، فتملاه أمير المؤمنين ، وقال له :

"يا بنيَّ .. دع القول لمن هو أسَنُّ منك " .

ويبدو أن الغلام العربي الأصيل كان يحمل نُبوغاً مبكراً ، فقد أجاب الخليفة من فوره :

"يا أمير المؤمنين :

المرء بأصْغَريه : قلبه ولسانِه ..

ولو كان الأمر بالسِّن ، لكان في المسلمين من هو أحقّ بهذا الأمر منك " .. !!

وفجأة ، تنثال دموع الغبطة والفرح من عَينِي القديس ، ويتهلّل وجهه ، ويهتف بالغلام :

"صدقت .. صدقت ..

عِظْنِي يا بُنى .. !!"

وإن أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوماً شاهِراً سيفه ، يَسُبُّ ويشتم أمير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالي .. ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ، ويقول في كتابه : "لقد هممتُ أن أقتله" ..

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فورًا :

" أمَا والله، لو أنك قتلتَه لقتلتُك به" .. !!

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجلٌ من عامّة الناس ، رافعاً عقيرته في وجه الخليفة بكلمات تُثير غيظ الحليم ..

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :

"لعَلّك أردتَ أن يستفزّني الشيطان بعزّة السلطان ؛ فأنالَ منك اليوم في الدنيا ما تتقاضاهُ مني غداً عند الله .

"ولكن ، لا ..

"قم ، عفا الله عنك" .. !!!

* * *

ومن أذكى وأبلغ ما أدّاه "ابن عبد العزيز" في سبيل إنهاض رأي عام أمين على مسئولياته وقادر عليها ـ حَسْرُ ذلك المدّ الطاغي لدولة الشّعر والشعراء التي كانت قائمة يوم ذلك .

لقد رأينا فيما سلفَ من حديث ، كيف اصطنع الأمويون الشعراء لتزييف الحقّ ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القِيَم والأخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقَبة كئوداً في سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها .. والآن ، يتقدم البطل القديس ، مُطْلِقاً رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتُبدّده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مُشرقة بنور الحقّ وحده ! ..

لقد وقف يخطب الناس فقال :

"من أراد أن يصحبنا ، فليصحَبنا بخمس ، أو فليفارقْنا :

* يرفع إلينا حاجةَ مَنْ لا يستطيع رفعَها .
* ويُعيننا على الخير بجُهده ..
* ويدلنا على ما لا نهتدي إليه من الخير .
* ولا يغتابنَّ عندنا أحداً ..

* ولا يَعرضَنّ لما لا يعنيه .."

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، أن جميع كتب التاريخ التي تنقل هذا الخطاب ، تُتبعه بقولها :

" فانفضّ عنه الشعراء والخطباء، وثبَت معه الزّهاد والفقهاء .. ! "

أجل .. فمعظم شعراء عصره ـ وعلى رأسهم الأخطل ، والفرزدق ، وجرير ـ لم يكن لهم مع هذه الخمس، ولا مع واحدة منها رَحِمُ ولا قرابة.. !!

فهم إمّا مادحون بغير حقّ .. وإما هَاجُون بغير حقّ أيضاً ..

وهم في كلتا الحالتين يحرِمون الرأي العام رؤية الصدق بما ينشرون من أضاليل وبهتان .

والآن ، يجيئهم رجل عظيم ، لا حاجة به إليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشّعر في تأجيجها ..

وليس له طموح ، يحتاج للشّعر في قرع الطبول له ..

وليست له شهوات يحتاج للشّعر في تزيينها ، ولا أخطاء يحتاج لتبريرها .

وليس له بالسلطة ولَع ، فيحتاج للشّعر في حمايتها واستبقائها .

ثم إنه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى أمّته لهذا الهذَر العريض الذي ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموي كله .. !!

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمّة ، مكافأة على مدح أو اتقاء لهجاء..!!!

وراح - أمير المؤمنين - يشرف بنفسه على إمداد الرأي العام بكل الصدق، ويكل الحقيقة عن طريق منشوراته التي كان يرسلها للولاة، ويبعث بها إلى شتى الأقطار ..

ولقد بدأ بدحْرِ تلك الخطيئة الفاحشة التي كان الحكم الأموي يمارسها في سفالة، وهي لعن "الإمام عليّ" كرم الله وجهه على المنابر..!!

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة - تلك الآيات الطاهرة:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ، وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾..

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ..

* * *

لقد وضع الكذب، ورفع الصدق ..

ودحَر الباطل، وآزر الحقّ ..

وكان ذلك إسهاماً فعّالاً في إنهاض رأي عام حَصيفٍ وأمين ..

وأمير المؤمنين - عمر - لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدراك حاكم عادل صالح فحسب .. بل إنه ليدرك كذلك جوهرها إدراك فيلسوف .. !!

فهو لا يرى فيها مجرّد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالأمّة، وتبادُل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع .. بل يمضي في اتجاه التحليل النهائي لجوهرها ووظيفتها، ليرى ذلك متمثلاً في ظَفر كل فرد من

الناس بحقّه في اختيار اقتناعه .. وحقّ هذا الاقتناع في التعبير عن نفسه، في غير زيف أو غُموض ..

ذلك أن الناس حين يُزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل في الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم .

وما دامت الآراء الصادقة هي مادّةَ الشورى وأداتَها ، فإن اختفاء هذه الآراء إذن ، يُعتبر وأداً للشورى وإلغاءً لمهمتها ..

وهنا تُطِل علينا عظمة القديس "عمر" وهو يضع اقتناع الناس ـ حتى حين يخالفهم ويخالفونه ـ موضع القبول والتقدير ..

والوقائع التي تحكي وَلاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدحم بها الشهور التسعة والعشرون التي قضاها خليفة وإماماً .. لكننا نختار منها هذه الواقعة التي تكاد تعطينا التعبير النهائي لهذا الولاء ..

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقّوا على "الإمام عليّ" كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم .. هؤلاء الذين تحوّلوا بعد ذلك ، وخلال العصر الأموي إلى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كُثْراً ذهب منهم خلالها ألوف الضحايا ..

وبالإضافة إلى نشاطها المسلّح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سُنة . ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابدَ الأوّاب لا ينسى حتى في فِتنهم هذه ، حقّهم في أن يكون لهم اقتناعهم، ثم لا ينسى واجبه في احترام هذا الحقّ لهم ، وواجبه في إعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ، ما دام نشاطهم لا يتحول إلى عمل إرهابي يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يُخالفونهم في اعتقادهم واقتناعهم..

بل إننا سنراه يرى بحصافته الباهرة ، أن السبيل الأمثل لصرفهم عن

التآمر والإرهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الـرأي الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبـل أن يتحـول داخـل نفس صاحبه المقهورة إلى حِقد موتور ، وقذيفة رَعْناء .. !!!

وهكذا ، لا تكاد إحدى تلك الفرق تتحرك فـي الأيـام الأولـى مـن خلافته، مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يُرسل إلى زعيمها هذا الكتاب:

أما بعد ...

فقد بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسـوله .. ولسـتَ أولـى بذلك مني ..

فَهَلُمَّ أناظِرْك ...

فإن يكن الحقّ معنا ، تدخـل فيـه ، وإن يكـن الحـقّ معـك ، نراجع أنفسنا وننظر في أمرنا .. !! "

ويقرأ الزعيـم الثـائر كلمـات "القديـس" فيخجـل مـن نفسـه ، ويلقـي سلاحه ، ويرسل مبعوثين إلى عاصمة الخلافة ، يُجريان مع الخليفة حـواراً حول ما بينهما من قضايا وخلاف .. ويجري الحوار بينهما رائعًـا ، صادِعًـا ، تتجلّى خِلاله موهبة ـ ابن عبد العزيز ـ في رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطـق، وامتلاك الأفئدة والعقول .. !!

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، أن تُلقي تلك الفرقة المتمـردة سلاحها ـ بعد ما تبينت أنها في عصر رجل جديد ينتمـي لعصـر النبوّة والوحي .. رجل يخجل الشيطان نفسه أن يَشْغَبَ عليه ، أو يتحدّاه .. !!

على أن لهذه الواقعة ـ برغـم دلالتـها المفيضـة ـ مثيـلاً آخـر يكمـل الصورة التي ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأي وحُرمة الاقتناع .

فـهو علـى الرغـم مـن معرفتـه بفسـاد الكثـير مـن منطـق الخـوارج

وحججهم، لم يرَ القوة قطّ سبيلاً لدحْض هذا المنطق وإسكاته ـ بل رأى أن قيام منطق أهدَى ، وحجة أوضحَ وأصدقَ ، هو السبيل لإظـهار الحـقّ وإخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج ـ هم "حَرُوريَّـة المُوصِل" يسيحون في البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم .. ويكتـب إليـه حاكم الموصل ، يستأذنه في قمعهم وإسكاتهم ..

أقول : نلتقي بأمير المؤمنين يجيب والِيَه فيقول :

"إذا رأوا أن يسيحوا في البلاد في غير أذًى لأهل الذمَّـة ..
وفي غير أذًى للأمة . فليذهبوا حيث شاءُوا ..
"وإن نالوا أحداً من المسلمين ، أو من أهل الذمَّة بسـوء ،
فحاكمهم إلى الله .."

بالله ، ما أعدلَه .. وما أروعه .. !!

إنه لا يرى لنفسه حقا ـ أيَّ حقّ ـ في الحجْر على آراء الآخريـن ، ولا في الوصاية عليها ..

وهو ـ كحاكم ـ لا يرى لنفسه أيَّ حقّ في التدّخل إلا حيـن يواجهـه خطر مسلَّح يتهدد سلامة الدولة والأمَّة ..

أما دون ذلك ، فلكل رأي حرمته ، ولكل اقتناع حقّه وحريته ..

وهذا النهج الراشد السـديد، هـو الـذي مكَّـن للشـورى فـي عـهده تمكيناً تكاد تتقطَّع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات .. !!

ولطالما قالوا له يومئذٍ : إن هؤلاء الخوارج ينشرون بين النـاس أفكـاراً زائفة ، ويَلبِسون الحقّ بالباطل ، وإنَّ تركهم يجوبون البلاد بعقـائدهم هـذه ، عمل يُنذِر بسوء مآب ..

فلا يزيد القديس العادل على أن يُذكّر مُحدثيه ومُحرّضيه بآيات القرآن العظيم التي نهى الله فيها رسوله عن أن يَسُوسَ ضمائر الناس بالقَهر والبطش :

﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .. ؟

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ .. !!

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ !!

ولقد وقفت العواقبُ بجانبه ، وأثبتت صدق رأيه وذكاء تقديره . فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يومًا واحدًا منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم إلا إمعاناً في التحدّي وضراوة في القتال .. نراهم في عصر هذا القديس الجليل يَغمِدُون سيوفهم ، وينسَوْن طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الأمويين من تِرات ، وثارات ... !!

* * *

وثالثا : المال وديعة ..

وأمام المشكلات الاقتصادية ، ومُشكلات الدخل والتوزيع التي تُحَيّرُ الدول في كل العصور والأزمان ، لم تأخذ "عمر" حيرة ، ولم تُعْضِله أزمة ..

ذلك أنه مؤمن بأن الحقّ والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظمَ وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمة ـ يومئذٍ ـ لم يكن ينقصها المال .. إنما كان ينقصها اتّباع الحقّ في تقاضِيه .. واتّباع العدل في توزيعه .

وقبل هذين ، بَعْثُ حرمة الأموال العامة وقداستها في ضمير الدولة ، بكل مسئوليها .. وفي ضمير الأمّة ، بكل أفرادها .. إن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى :

﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ .

فمصادر الإنتاج ، والإنتاج ، والثروة .. كل ذلك إذن وديعة الله عند الناس .. دُوَلاً ، وأممًا ، وجماعات ، وأفرادًا ..

ولودائع الله هذه حُرمتها التي تنأى بها عن التلَف ، والسرَف ، والبغي، والاحتكار ..

فإذا اكتسَبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفًا آخر ، فصارت أموالاً عامة ، فإنّ حُرمتها وقداستها تربو وتزداد ..

ذلك أن معنى كونها [أموالاً عامة] أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمّة .. لكل أرملة فيها ، وكل يتيم . لكل مُسِنٍّ ، وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهي بهذه المثابة، مثابة أنها ـ أولاً : ودائع الله . وثانيًا : حقّ الناس، جميع الناس .. تتمتع بحرمة بالغة ، وقداسة وُثْقَى ..

و "ابن عبد العزيز" يرى نفسه مسئولاً عن إعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحقّ ..

وإنه ليُعبِّر عن ذلك في كلماته الفاصلة :

" إنما أنا حَجِيجُ المسلمين في مالهم " !!

كما يُعبِّر بسلوكه تجاهها تعبيرًا يبهر الألباب ..

إنه يرسل خادمه يوماً ليسخِّن له بعض الماء كي يتوضأ به في يوم

شاتٍ زمهرير ..

ويعود الخادم مسرعًا بالماء الدافئ ، فيسأله الخليفة : أين أدْفَأه بهذه السرعة .. ؟

فيجيب الخادم : في مطابخ المسلمين ..

وكان ـ عمر ـ قد توسع في إنشاء مطابخ عامة للناس يُنفق عليها من بيت المال .

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يَمسَّ الماء جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جداً من الماء .. !!!

وإنّا لَنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلاً على مصباح يُؤخذ زيته من بيت المال ، فإذا عرض له أثناء ذلك طارئ شخصي ـ ولو كان لا يستغرق سوى لحظات ـ فإنه يطفئ مصباح بيت المال ، ويُوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهي من ذلك الطارئ ..!!

ولقد يرى بعضهم في هذا المسلك نوعاً من التزَمُّت المغرق ..

ولقد يَرَوْنَ في إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التي كان يحكمها ـ ابن عبد العزيز ـ أمراً غير مألوف .. وربما غير مستساغ .

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتُهم أن الذي كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها ، إنما هو المعنى الكبير الذي يملأ ضميره ، ويُشكل سُلوكَه تجاه الأموال العامة وحُرْمتها وَقَدَاستها ..

وبعد ذلك يستوي أن يكون هذا المال : عَدْلَ درهمٍ من زيتٍ

مصباح.. أو ملءَ حجرة فضةً وذهباً .. !

إنه يذكُر ، ويذكِّر الناس دائماً بالآية الكريمة :

﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ !!

والغُلول عنده في أحقر الأشياء ، مِثله في أكثرها وأخطرها .. وفيما يستأثر به لنفسه ، مِثله فيما يجود به على غيره !!

بل حتى الهدايا ، رآها غُلولاً ، أو شيئاً يشبه الغلول ..

جاءته يوماً هدية ، فاعتذر عنها ـ فقيل لـه : إن رسـول الله ﷺ كـان يقبل الهدية ..

فأجاب قائلاً :

"لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة" !!

* * *

إن موقفه من أموال الأمّة لعجيب . ثم عجيب .. !!

وإن لها في فؤاده الذكي التقي لحرمة تضاهي حرمة الإيمان ذاته ، وحرمة التوحيد .. !!

يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التي كانت دار الإمارة تُضاء بها ، ويُضاء بها للأمير وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر ..

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

"لقد عَهِدتُك يا بن أم حَزم ، قبل أن تكون واليًا ، تخرج مـن بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ..

"ولعمري ، لأنتَ يومئذٍ خير منك اليوم ، ولقد كان فـي فَتائِل أهلك ما يُغنيك" !!!

ويكتب إليه والٍ آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضًا :

"إذا جاءك كتابي هذا ، فأرِقّ القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة في الصفحة الواحدة ..

"فإنه لا حاجة للمسلمين في فَضل قولٍ أضرّ ببيت مالهم... "!!

هنا بيت القصيد .. [أضَرّ ببيت مالهم] !!

فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق.. فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعًا وأقلامًا وورقًا..

إنما المسألة في وَعْى "الحاكم القديس" هى حرمة هذه الأموال وقداستها .. هي تجنُّب التفريط والإفراط فيها .. هى درجة الولاء لمسئولية رعايتها وحفظها .. وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضًا مهما تكن ضآلة مقداره ..

ذلك أن الإسراف الذي يتمثل اليوم في شمعة أو قلم .. سيتمثل غدًا - إذا استهين بأمره - فيما هو أوخم عاقبة وأسوأ مصيرًا .. !

* * *

هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

ونعود إلى موقفه من "مشكلة الدخل والتوزيع" .

قلنا: إن الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء .. إنما كان ينقصها تقصي الحقّ في جمعه .. والعدل في توزيعه ..

فقيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف والسرف

ميزانية الدولة ، راحوا يُعوّضون ذلك بجمع المال بوسائل غـير مشـروعة، وضرائب غير عادلة ..

فأهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فورًا . لكنّ الدولة الأموية تأبى في ذلك حكم الإسلام ، وتُبقي الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون فِرارًا من الضريبة.. !!

ويجيء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الزائف ، ويُعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل في دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالاً وذهبًا .

ويُطلق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

"إن الله بعث ـ محمدًا ـ هاديًا ولم يبعثه جابيًا" !!

ولقد أرسل إليه واليه على العراق "عديّ بن أرطأة" يقول: "إن الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجاً ، حتى خشيت أن يقلَّ الخراج" .

فيجيبه الخليفة المُقْسِط العظيم :

" والله ، لوددْتُ أن الناس كلهم يُسلمون ، حتى نكون أنا وأنت حَرَّاثين ، نأكل من كَسْبِ أيدينا . !!! " .

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التي كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل حتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن "عروة بن محمد" :

"أما بعد ..

"فقد كتبتَ إليّ تذكرُ أنك قَدِمْتَ اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقهم ، كالجزية يؤدونها على كل حال .. إن أخْصَبوا ، أو أجْدَبوا .. إن حيوا ، أو ماتوا. "فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله رب العالمين !!

"إذا أتاك كتابي هذا ، فدعْ ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحقّ ..

"واعلم أنك إن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كَتم [١] ، فقد علم الله أنى سأكون بها مسروراً ، ما دام في ذلك إبقاء على الحقّ والعدل" .. !!!

ولعل بعضنا يأخذه العجب .. فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن "الدَّخْل" أن نشير إلى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرَّة تُضاعفه وتُنمّيه ، إذا بنا نُطري سياسة الخليفة تجاه الدَّخل العام ، لأنه ألغَى الكثير من تلك المصادر والموارد .. ؟!

ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون - ابن عبد العزيز ..؟!

إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة .. بل مسألة وفرة ..

والوفرة ، تكون فى بَركة الحلال المشروع ، لا في كثرة الحرام المغتصَب ..

ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث ، أن نقول

---

(١) الكتم : نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

لبعض المؤرخين الذين يردّون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين - عمر - إلى سياسته الضرائبية هذه .

ومن واجبنا أن نقول لهم : أغلب الظن أنكم مخطئون .

فلقد سارت الأمور في عهده كله على أتم نَسق . ولم تكن تُنذِر بأيٍّ عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ، تُرهِص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

إنما اضطربت فيما بعد ، حين غاب - البطل - عن مسرح العدالة والحقّ .. وعاد الترف والسَّرَف والفساد ، وسياسة السطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القدِّيس .. !!

* * *

على أن - الخليفة - حين ألغى الضرائب الظالمة ، أتاح فى نفس الوقت موردًا ثرًا للدولة ، حين ردَّ إليها جميع الأرض والثروة التى كانت تحت أيدي الأمراء .

ومورد آخر، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم في مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير، وتحريم كل سَرَفٍ ..

أجل .. لقد كان - ولا يزال - وضع المال في مكانه الصحيح وداخل ضرورته الملِحّة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر ..

ولقد - التزم - عمر - هذا النهج التزامًا يكاد يكون مطلقًا مع نفسه، ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوي قرباه ، وأصدقائه ، والناس أجمعين .

ها هو ذا أحد المقربين إليه ، الأثيرين لديه - عنبسة بن سعيد - يذهب إليه يومًا، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

" يا عنبسة .

"إن يكن مالك الذي عندك حلالاً ، فهو كافيك .

"إن يكن حرامًا، فلا تُضيفَنَّ إليه حرامًا جديدًا ..

"أخبرني يا عنبسة ..

أمحتاج أنت .. ؟ لا ..

أفعليك دَين .. ؟ لا ..

"إذن ، فكيف تطمع في أن أعمد إلى مال الله فأعطيكَهُ في غير حاجة .. وأدَع فقراء المسلمين ؟!

"لو كنتَ غارمًا ، لأديتُ عنك غُرمَك .. أو محتاجًا لأمرتُ لك بما يصلح شأنك ..

"فليكن لك في مالك غَناء ..

واتَّقِ الله ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين " . !!

إن هذا الذي قاله لصديقه الحميم "عنبسة" كان يقوله لكل من يسأله ما ليس له بحقّ .. على أن هذا الذي هو حقّ فى تقديره ، لم يكن يتمثل عنده إلا في ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له أن يحول شَهقات البائسين إلى بسمات متهللة، وفرح غامر، دون أن يحوِّل السَّرَاة إلى طبقة بديلة للبائسين .

إن كل ما صنعه بهم أنه أخذ منهم تَرَفهم وتُخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراماً متواضعين .. !!

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، إلى التوزيع . فكيف راح الحاكم القديس يوزع أموال الأمّة، وأين كان يضعها ..؟؟

لقد ردّ المال إلى وظيفته الحقيقية ، وإلى دَوْره الأصيل ومسـئوليته الأولى في خدمة الأمّة وتغطية احتياجاتها .

لقد بدأ فرسم حدود الكفالة الشاملة التـي سـتنهض بـها الدولـة تجـاه مواطنيها جميعًا، فردًا فردًا .. وحدد بالتالي مسئولية بيت المال تجاه تغطيـة هذه الكفالة كلها .

نرى ذلك في كتابه إلى وُلاته :

" لابدّ لكل مسلم من :

* مسكن يأوي إليه ..

* وخادم يكفيه مهنته .

* وفرس يُجاهد عليه عدوه .

* وأثاث في بيته .

* فوفروا ذلك كله ..

"ومن كان غارمًا ، فاقضوا عنه دينه" .. !!!

والتعبير بكلمة "مسلم" هنا .. لا تعني قَصْرَ هذه المزايا ـ بـل الحقـوق ـ على المسلمين وحدهم ، إنما اسـتعمل هـذا الوصـف لِغَلبتـه لا أكـثر .. ثـم كانت هذه المزايا والحقـوق مـن حقّ المواطنيـن جميعـاً ـ مسـلمين وأهـل كتاب ...

وأمر الخليفة ولاته أن يبدءوا بتغطية حاجات أقطارهم ، ومـا فـاض وبقي يُرسَل إلى الخزانة العامـة .. ومـن قصـر دخـل إقليمـه عـن تغطيـة حاجات أهله ، أمدّه الخليفة بما يغطّي عجزه :

"استوعِب الخراجَ وأحرِزْه فى غير ظلم ..

"فإن يك كافيًا للناس ، فحسنًا .. وإلا فاكتبْ إليّ حتى أبعث إليك من المال ما توفر به للناس أعطياتهم" .. !!

* * *

وراح "المبارك الميمون" ينشئ في طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، يأوى إليها المسافرون وأبناء السبيل ..

ومضى ، يرفع مستوى الأجور الضعيفة ..

وكفَل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدى الناس أجرًا ..

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يفرغوا لمهامّهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .. !!

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له أموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدول ..

وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين، فقضى عنهم ديونهم ..

وافتدى أسرى المسلمين جميعًا ، وأغدق عليهم العطاء ..

وكفَل اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع أقطار دولته العريضة المترامية ..

وكما فعل جدّه العظيم ـ عمر بن الخطاب ـ من قبل ، فعل هو أيضاً، فأمر أن يُفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرّد ولادته ، وليس بعد فطامه، حتى لا تتعجل الأمهات فِطام الرضَعاء فيتعثر نموُّهم ، وتضمحل قُواهم.. !!

ومن أجل ألا يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع أحد بين عطاءين ..

وحرم على جميع العاملين والموظفين الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب.!!

* * *

وهكذا تقسّط الناس جميعًا فى عهده العظيم ما أفاءَه الله عليهم من خير ورزق .

وإنّا لنكاد نذهل أمام ذلك الإجماع التاريخي الذي يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء في عهد القديس الورع ، "عمر بن عبد العزيز" ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرًا يأخذها ـ ويبسط يده إليها .. !!

ذلك أن عدل ـ ابن عبد العزيز ـ لم يكفِ الناس حاجتهم فحسب .. بل ملأهم شعورًا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحقّ ، وبالعدل ، ويعبده الصالح "عمر بن عبد العزيز" !!!

* * *

ورابعا: وحدة الأمة وسلامها ..

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعًا ممزقًا ، يتربص بعضُه ببعضٍ الدوائر .. ويتربص كله بالدولة الدوائر .. !!

فخلفاء بني أمية، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ، ويختص

آخر اليمانية.. ويميز أحدهم أهل الشام .. ويميز آخر أهل العراق ..

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها ؛ فظهر من ينادي بسيادة أهل الحضَر ـ وفي مواجهتهم ، ظهر من ينادي بسيادة أهل البادية ..

كذلك كان الخلفاء الأمويون قد جَنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب ـ أولئك الذين عُرفوا باسم "الموالى" ، ففرضوا عليهم الجزية ظلماً ، وحرموهم الحقوق التي يكفلها لهم الإسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الإسلام عاليًا فى كل مجال .. !

كذلك كان هناك الفِرَق الكثيرة ، من شِيعة وخوارج ومُعتزلة، منهم مَنْ يحمل السلاح في وجه الدولة، وفي وجه خصومه في الرأي ، ومنهم من لا يحمل السلاح ، ولكنه يحمل الكلمة المسمومة .. ومنهم مَنْ يلتزم حدود المنطق والحِجاج ..

* * *

ورث "القديس" المجتمع على هذا التمزق والتشتُّت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفَتْ عنه في لحظة كل هذه الخبائث .

وطهرت ـ لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب ـ بل ضميره وروحه أيضاً ، فشهد مجتمع الإسلام في أيامه إخاءً وثيق التراحُم .. وأخذ كلٌ حقّه .. وقنع كل بحقّه .. !!

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .

وأما الموالي ، فقد وضع عنهم إصْرَهُم ، وصحّح وضعهم .

وأما النزعة القبلية والإقليمية ، فقد طواها بيمينه .

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون .. ولا عراقيون وشاميون .. ولا عرب ومَوالٍ ..

لقد عادت رَحِـمُ الإسـلام تنتظـم جميـع أبنائـه كـالعقد المنظـوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة في قول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

* * *

ولم يقف تصور "ابن عبد العزيز" لوحدة الأمّـة عنـد هـذه الحـدود وحدها .. بل امتد إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى وضع الأقليات ، فـأكد دمجها في جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا في رسالة مرت بنا من قبـل ، أرسـلها لأحـد ولاتـه بشـأن بعـض الخوارج ، فقال له :

"إن ساروا في الأرض دون إسـاءة لأهـل الذمـة ، وللأمّـة ، فدَعْهم" ..

وفي كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة ، أولئك الذين أسماهم الإسلام ـ أهل الذمة ـ توكيداً لِما في ذمة المسلمين لـهم من عهد وميثاق .. !!

لقد كانوا إلى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت .. ويقبعـون تحت وطأة ضرائب ظالمة .. فما كاد يتولى أمر الأمّة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخـذ منهـم سـوى الضريبـة التـي شـرعها الإسـلام لقـاء حمايتهم وتوفير الأمن لهم .

وإن موقفه من قضية "كنيسة يوحنا" بدمشق لمثَل رائع وبـاهر علـى عملـه العظيم والنبيل لدعم وحدة الأمّة كأمّة ، بصـرف النظـر عـن اختـلاف الديـن

والجنس واللون فيها .. !!

كان "الوليد بن عبد الملك" قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة "يوحنا"، ليقيم عليه امتداد المسجد الأموي المشيد.

وحين وليَ ـ عمر بن عبد العزيز ـ الخلافة، شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم ..

تُرى، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذي تهدَّم من الكنيسة قد صار مسجداً ..

وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف أن يعطى تعويضًا سخيًا، أو أرضًا بديلة ..

لكنّ "ابن عبد العزيز" يتعامل مع العدل والحقّ بأسلوب مختلف عن أساليبنا .. إنه أسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد، وإعادة الأرض التى أقيم عليها إلى الكنيسة .. !!

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره .

لكنّ أمير المؤمنين، أصدر أمرًا جديدًا حدَّد فيه اليوم، بل الساعة التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم . !!

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يُفاوضوا زعماء الكنيسة في دمشق، ويعقدوا معهم اتفاقًا يرضَوْنه . ويتنازلون بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفدٌ من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله عليه، ثم يقرُّه ويرضاه .. !!

* * *

بمَ إذن نُفسِّر ذلك الموقف الذي اتخذه من بعض أهل الكتاب من النصارى ، حين أمر أن يُعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، وإحراج لهم .. ؟؟

إننا في ضوء موقفه العام الذي رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارئ هذا تفسيراً إلا أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أولئك الذين عملوا كطابور خامس للإمبراطورية الرومانية التي كانت تشن باسم الصليب - حروباً عدوانية على دولة الإسلام ..

يُزَكِّي ذلك - في رأينا - تلك الرسالة التي حملت أوامره بشأن أولئك النصارى . فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد في دورهم من سلاح.. مما يومئ إلى وجود مؤامرة كانوا يهمُّون بها .. على أنه في موقفه من هؤلاء، لم يأمر باتخاذ أيِّ إجراء عنيف .

كل الذي أمر به أن يُمَيَّزوا بلباسهم الخاص .. وحتى هذا الإجراء يشير إلى الريبة التى داخلت نفسه تجاههم ، فأراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم ..

فإذا جاوزنا هذه الفئة التى فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامَّة موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات في دولته الراشدة انبهار وإعجاب العالم الخارجي من حوله ؛ حتى إن إمبراطور الروم "ليو الثالث" - وقد كان خصمًا عنيدًا لدولة الإسلام - لا يكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكي بكاء مُرًّا ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه في ذلك ، فأجابهم بكلمات تُعَدُّ من أصدق وأجمع ما قيل في تأبين

أمير المؤمنين :"

"مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل .. !!

"وليس ينبغي أن يعجَب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله في صومعته .

"إنما العجب لهذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها .. !

"ولقد كان حَرِيًّا أن يُعجَل به ؛ فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً" .. !!

أفكان هذا الإمبراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لو عرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب في عهده .. ؟؟

بل هل كان كبير أساقفة الرومان سَيَخِفُّ مسرعًا حين علم بمرض الخليفة، ليقيم إلى جواره يُطببه ويعالجه .. ؟؟

* * *

ونعود للعمل الذي عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمّة ؛ لنرى كيف كان في الوقت نفسه عملاً في سبيل سلامها الداخلي :

فالسلام الداخلي ، إنما يتوفر بالقدر الذي يتجمع فيه شمل الأمّة وتتآخى أرواح بنيها ..

ولقد أنعم الله عليه وعلى أمّته بما تمنّى من وحدة الإسلام ..

فماذا عن السلام الخارجي ووضع أوزار الحروب التي كانت مشبوبة الأوار خارج الحدود .. ؟

لقد رأيناه يبدأ في الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره

للجيش الذي أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدى جميع الأسرى على كثرتـهم ويردّهـم إلـى ديـارهم ووطنهم .

ثم نراه يضع حداً لكل الأعمـال العسكرية التـي كـانت تقـوم بـها الدولة .. ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزاً منيعاً بما تـمّ لـه مـن فتـوح ، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعـاً عـن حـدود الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمّة إذا تعرضت للأخطار ..

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التي أرسلها إلى ملوك الـهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم أكـثرهم متـأثرين بمـا كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده ، وعظمته وتُقاه ..

كذلك كتب إلى البربر ، في إفريقية .. يدعوهم إلى الإسلام ، فدخلـوا فيه أفواجًا ..

وكتـب إلـى ملـوك مـا وراء النـهر ، فأسـلم أكـثرهم ورفعـوا رايـة الإسلام..

أليس رجلاً مباركاً ذلك القديس . ؟؟

* * *

وخامساً: أسلوبه في التنفيذ ..

ماذا كانت الأمّة ستفيد من ورعه وزهــده وتقـاه وعدلـه، لـو لـم تكـن كفاءته في التنفيذ موازية لكفاءته في حمل المسئولية والإخلاص لها..؟؟

هنا نلتقي بجانبٍ مـن أبـهى وأغنـى وأقـوى جوانـب شـخصية ذلـك القديس الفطِن الحازم الأريب .. نلتقى به صاحياً يقظان .. !

إن كل ساعات اليوم الأربع والعشرين منذورة لمسئولياته ..

ليس منها سوى الوقت الذي تستغرقه صلاته وعبادته ، والساعتين أو الثلاث التي يمنحها لنومه وراحته..

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه إلا لمسئوليته المقدسة .

وله أسلوب فريد في إنجاز هذه المسئولية وتنفيذ منهجها .

فاللّين ، والحزم .. والأناة ، والحسم .. والإشراف العميم ، واللامركزية.. والمطاولة ، واليقظة .. كل هذه تعمل "مجتمعة" لا "مختلطة" ـ في اتساق فذّ وتكامُل عجيب .. !!

يبلغ به التعب يوماً أشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه ، فيقول: "ومن يجزى عني عمل اليوم" .. ؟

فيقولون له : تنجزه في الغد ..

فيجيب : "لقد فَدَحني عمل يوم واحد حتى سألتموني أن أريح نفسي، فكيف إذا اجتمع عليّ عمل يومين" .. ؟؟

إنه لا يُجري حسابه الختامي كل شهر ولا كل أسبوع .. بل لكل يوم مسئوليته وحسابه الختامي ، ولا يحيل يومًا على آخر ، لأن لكل يوم مُزدَحمه وأحماله .. !!

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التي تنتظمها دولته الواسعة ، نداء النَّجْدَة .. لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم في أدني الأرض وأقصاها إلا ألفَتْه وكأنه في انتظارها وحدها !!

وصِغار الأمور عنده مثل كبارها .. لها الاهتمام نفسه والمسارعة نفسها .. حمل إليه بريده يومًا رسالة من الجيزة بمصر ..

أما صاحبة الرسالة فاسمها "فرتونة السوداء"، تشكو لأمير المؤمنين أن

لها حائطاً متهدماً لدارها يَتَسَوَّرُهُ اللصوص ويسرقون دَجاجها، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو في عاصمة خلافته بالشـام حتـى يكتب إلى والِيه على مصر "أيوب بن شرحبيل" هذا الخطاب :

"من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيوب بن شرحبيل .

"سلام الله عليكم ..

"أما بعد ، فـإن فرتونـة السـوداء كتبـت إلـيّ تشـكو قصـر حائطها، وأن دجاجها يُسرق منها، وتسأل تحصينه لها .

ونفسه البريد الذي حمل هذا الكتاب لوالي مصر . حمل كتابًا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء :

" من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونـة السوداء .

سلام الله عليك .

"أما بعد ، فقد بلغنـي كتـابك ، ومـا ذكـرتِ فيـه مـن قصـر حائطك حيث يُقتحَم عليك ويُسرق دجاجك ..

"وقد كتبت إلى "أيـوب بـن شـرحبيل" آمُره أن يبنـي لـك الحائط حتى يحصِّنه مِمَّا تخافين إن شاء الله" .. !!

يقول ابن عبد الحكم الذي روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

" فلمّا جاء الكتاب إلى أيوب بـن شـرحبيل ، ركـب بنفسـه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن "فرتونـة" حتـى وجدهـا ، فإذا هي سوداء مسكينة ؛ فأعلَى لها حائطها" .. !!

هذا خليفة قديس لن تُفلت من رحمته وحسناته وعدله وأبوّته شاردة ولا واردة.. !!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء ..

انظروا .. !

إنه يكتب لواليه على مصر أيضًا :

"أما بعد ..

فقد بلغني أن الحمّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تُطيق ..

فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .. !!".

بل إنه ليبصر فى بعض جولاته أناسًا يحملون مقارع ، فى أسلفها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر فى مجلسه حتى يوقع قرارًا يحرّم استخدام هذه المقارع .. ؟!

وتأتيه يومًا سلّتان كبيرتان مملوءتان من رُطب الأردن ، فيسأل : ما هذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلامَ جيء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز رأسه ، ويقول :

"لقد حملتموها فوق طاقاتها .. بيعوا الرطب ، واشتروا بثمنه علفًا لدواب البريد التى حملته .. !!

* * *

ويبهرنا لِينُه ، وأناته ، وسَعَة صدره التي لم تعرف حدوداً .

وفي تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الأصيلة ـ هذه الرحمة الذكية التي لم تكن تعنى مجرّد الشفقة بالناس ، بل تعنى القيام بحقّهم في بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف .

وإنّا لنتسمّع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذي كان يَضرع به إلى الله كثيراً :

" اللهم زِد مُحسِنَ أُمَّة محمد إحسانًا ، وأرجع مُسِيئهم إلى التوبة .. اللهم وحُطَّ من أوزارهم برحمتك" !!

إنه لا يتحسس الأخطاء ، ليعاقب عليها ، بل ليعالجها في رحمة وحنان .

وإن أخطاء الناس لتشغله إلى المدى الذي رأيناه حيث لا ينظر إليها كحاكم ؛ بل كعابد ، يصلّى من أجل مغفرتها وإنهاض ذويها .. !!

وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسَعَة صدره وتسامحه ، داخل إطار ذاته كخُلق شخصى له فحسب ، بل يحوّلها إلى فلسفة للحكم ومنهاج .

ولطالما كان يوصى كل والٍ من ولاته بهذه الوصية :

"إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكيّ فلا تكوِيَنَّه أبدًا .. !!" .

ولقد كان من حقّ حكام الأقاليم قبل عهده أن يُنفذوا حكم القتل فيمن يشاءُونَ عدلاً ، أو ظلمًا ..

فلمّا وَلِيَ ، حرمَهم هذا الحقّ ، وأصدر أمره ألا ينفّذ حكم القتل في أحد، حتى يطّلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه ..

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً :

"والله لا أصلح الناس بهلاك ديني" !!

* * *

على أن رِفقه وأناته اللذين وسعا أمّته جميعـًا ، لـم يكونا مطمعًا يُغري باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تُسوِّل له نفسه عبثًا، أو فتنة .. !!

ولقد كانت فضائله كلها مُهَيَّأةً على الدوام لحماية مواقعها ، وأداء دورها ..

فلا يجيء موقف يتطلب الرحمة ؛ فيجدها غافية .. ولا موقف يتطلب الحزم ؛ فيجده كَلِيلاً .. !!

ولقد نراه مع عامّة الناس ينتفض كالعصفور تواضعًا وحنانًا ورحمة..

ثم نراه مع الجبارين أسدًا يزأر .. وجَلالاً يُهاب .. !!

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد إقطاعاتهم وثرواتهم بالضراعة والحيلة ، أغرَوْا واحدًا منهم وهو ـ عمر بن الوليد بن عبد الملك ـ بالكتابة إليه مهدداً متوعداً .. فكتب يقول :

"أما بعد، لقد أزْريتَ بمن كان قبلكَ من الخلفاء، وسرتَ بغير سيرتهم، فقطعت ما أمر الله به أن يُوصل ، وعملتَ بغير الحقّ في قرابتك ، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلمًا وجَوْرًا وعدوانًا."

"فاتّقِ الله يا بن عبد العزيز ، فإنك تُوشِك ألا تطمئن على

مِنبرك .. " !!

وفى نفس اللحظة التى يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خُلُق الحزم الصارم ليؤدي دوره تجاه الباطل الذى يتوعد الحقّ باسترداد سلطانه وبُهتانه .. !!

ويكتب أمير المؤمنين رَدَّهُ :

"من عمر أمير المؤمنين ، إلى ابن الوليد .. "

سلام على من اتَّبع الهدى ..

"أما بعد ، فعهدى بك أنك كنت جباراً شقيًا ، والآن تكتب إلـيّ تتهمنيى بالظلم ، لأننى حرمتك وأهل بيتك من مـال المسلمين ما هو حقّ للضعيف والمسكين وابـن السبيل .. !! ألا إن شئت أخبرتك بمن هو أظلم مني وأَتْرَكُ لعهد الله..!!"

"إنه أبوك الوليد ، الذي حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبيًا سفيهًا تحكم في دمائهم وأموالهم ..!! "فويل لك، وويل لأبيك ـ ما أكثر طُلابكما وخُصَماءَ كما يوم القيامة..!"

"وأظلم مني وأتركُ لعهد الله ، من استعمل الحجاج بن يوسف، يسفك الدم الحرام ."

"وأظلم مني وأترك لعهد الله، من استعمل يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب . يَجْبي المال الحرام .. ويسفك الدم الحرام .."

"ألا رُوَيْدَكَ يا بن الوليد . فلو طالت بى حياةُ لأ تفرغَنّ لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجّة البيضاء .. !!!" .

لنضع خطابه السابق إلى "فرتونة السوداء" تجاه خطابه هـذا إلـى ذلـك الأمير الأموى المتجبر ؛ لنرى في غير تعليق كيف كانت تعمل فضائل هـذا الإنسان الباهر الجليل .. !!

إن الرجل الذي يجلس للناس على الأرض وهو خليفة ..

الإنسان ، الوديع ، العذب ، يتحول إلى إعصار مُدمدم أمام جبروت البـاطل أنّى يكون .. !!

ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين. موقفه من إمبراطور الروم..

لقد أخبر أن أحد جنود الجيـش الـذي كـان يحـاصر القسطنطينية ، وكان مقاتلاً شديد البأس ، قد وقع أسيراً في أيدي الرومـان ، وحُمـل إلـى الإمبراطور الذي حـاول إكراهـه علـى الخـروج مـن دينـه الإسـلام ورفـض الأسير .. فأمر الإمبراطور أن تُسْمَل عيناه ..

بلغ النبأ ـ أمير المؤمنين ـ فهبَّ حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم :

"أما بعد ..

"فقد بلغني ما صنعتَ بأسيرك فلان ..

"وإني أقسم بالله ، لئن لم تُرسله إليّ من فورك لأبعثن إليـك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندى".!!

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله .. !!

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلّى فـي الإنجـاز وحـده ـ بـل فـي رؤيـة القضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل ..

ولو تتبعنا كتبه إلى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما

يبهر الألباب .

فلنقنع ببعض فقرات من تلك الكتب .

* اتبعوا ما أحلَّ الله وحرِّموا ما حرَّم ، واعترفوا بحقّه تعالى ، واحكموا بما أنزل .

* افتحوا للمسلمين باب الهجرة ..

* دعوا الناس يتجروا بأموالهم في البر والبحر ، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم .

* أبيحوا أرض الحِمَى للمسلمين عامة ، وليكن حقّ الأمير فيها كحق واحد منهم ..

* الخمر باب الخطايا ، فحرِّموا كل مسكر ..

* كافحوا التطفيف في المكيال والبَخْس في الميزان ..

* لا تتجروا وأنتم وُلاة ، فإنّ الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثر ، وأصاب ظلمًا ، وإن حرص ألّا يفعل ..

* لا تأخذوا من أموال الناس إلا الحقّ الذي شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله ـ لا فرق بين مسلم وأهل كتاب .

* ضعوا السُّخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل أجرُهُ ..

* رُدُّوا المزارع لِما خُلِقَتْ له، فإنما جُعلت لأرزاق المسلمين كافّة..

* لا تتخذوا على أبوابكم حُجَّاباً يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين ..

* اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدَعوا الناس يقول أحدهم ،

أنا مُضَرِيّ ، ويقول الآخر : أنا يمنى ؛ فالمؤمنون إخوة ..

* الخيل عُدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض فى غير حقّ ..

* امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى..

* قاتلوا هواكم كما تقاتلون أعداءكم ..

* سدِّدوا المخالفين ، وبصِّروهم ، وارفُقوا بهم ، وعلِّموهم ، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلاً .. وإن أبَوْا فتحَرَّوُا الحقّ فيما تُنزلون بهم من عقاب ..

* أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولاكم الله أمره ؛ فإن لكم فى إصلاحهم أكثر مما لهم ، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم ..

* تعاهدوا حُجَّابكم ورؤساء حرسكم وشُرَطِكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غَشْماً ولا ظلمًا ..

* لا يأخذنَّكُم الزهو بنظر الناس إليكم ؛ ولا بحديثهم عنكم . وضعوا أعينكم على الذى هو أبرُّ وأتقى ، وأخلصوا لله رب العالمين ..

* اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة ؛ فإن من أضاع الصلاة كان لِما سواها أضيع ..

* تحرَّوُا الحقّ ؛ ثم اعملوا به بالغًا ما بَلَغ بى وبكم .. حتى وإن ذهب بحياتنا وبمُهج أنفسنا ..!!

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وإرادته . يقظة تعطى الجزئيات الاهتمام نفسه الذي تعطيه

الكليات !!

وبهذا المنهج الذي يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه ، قطع ابن عبد العزيز طريقه وَثْبًا ؛ متخذًا من الإنجاز وسرعة الحركة طابعًا لمسيرته المباركة ..

لقد كانت مسئوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ، ومشكلات الدولة والأمّة لا تنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها ، بل تنتظر من يواجهها بذمّة وصدق وحسم ، ففيمَ إذن يكون تلفُّت أو انتظار .. ؟!

ومن هنا انطلق يُنجز ، وينجز ، وينجز ، مُعطياً كل مسئولٍ مسئوليته، آمرًا إياه إن يمضى بها فى شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان ينهى ولاته عن أن يكونوا إمَّعات ، أو متواكلين هيَّابين ..

وإنه ليرضَى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مُقْبلين على مسئولياتهم في شجاعة، مُنجزين إياها في حزم ؛ مُيَمِّمين وجوههم وأفئدتهم صوب الحقّ وحده ؛ لا يعدلون به أحداً ، حتى الخليفة نفسه:

"إذا أرسلتُ إليكم أمرًا يخالف الحقّ .

"فاضربوا به الأرض ..

"واستمسكوا بالحقّ وحده" !!!

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسئولية بمنحهم قدراً كبيراً من اللامركزية ، والاستقلال ..

أرسل يوماً إلى أحد ولاته أمرًا ، فأرسل الوالي يستوضحه ببعض التفصيلات ، فتجهَّم الخليفة وكتب إليه من فوره :

"أما بعد ..

فأراكَ لو أرسلتُ إليك : أن أذبح شاة وَوَزِّعْ لحمها على الفقراء، لأرسلت تسألنى : ضأنًا أم ماعزًا . ؟

فإن أجبتُك .. أرسلت إليَّ تسألني :

كبيرة ، أم صغيرة ؟

فإن أجبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء أم سوداء ؟!!

"إذا أرسلتُ إليك بأمر ، فتبيَّن وجه الحقّ فيه ، ثم أمْضِه"..!!

إنه لا يريد أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة .

إنه يجد نفسه مسئولاً عن كل خطأ، أو مظلمة تبقى دقيقة من الزمان.. ومن ثم فهو يقطع الأيام وثبًا وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حقّ حتى يؤديه لصاحبه.. !!

ويمثل هذا الحسم والإنجاز ، كان يغير كل والٍ ، أو قاضٍ ، أو أمين ، أو رئيس شُرطة ، أو مسئول ، لا تثبت التجربة السريعة الصادقة أنه في مكانه.. وإذا خُدع في أحد فظنه للمنصب أهلاً .. ثم تبيَّن له أنه غير أهل، لم يُنظِره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وإنجازه بلاد الدولة إعمارًا وحياة ، وفجَّرت طاقات الناس تفجيراً.

وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوة التي يقدِّمها للناس جميعًا تفعل فيهم فعل السحر ، وتجرى من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم في العروق ، فإنه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه .. فنراه يتنقل فى مواطن كثيرة متخفيًا ومتنكراً يسأل ، ويفحص .

ولم تكن في الحياة بأسرها متعة تشيع في روحه البهجة والغبطة

مثلما يرى أو يسمع أن ظلماً قد دُحض .. وأن عدلاً قد نهض .. وأن حقا قد رُدَّ لصاحبه في غير جهد منه ، أو إلحاف !!

ركب يومًا في إحدى جولاته هذه ، مصطحبًا معه مــولاه "مُزاحِـم" ، حيث خرجا إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين ..

وهناك راح ـ وهو متنكر في ثيابه ـ يسأل الغادِين منهم والرائحين.

ومن بين هؤلاء رجل في إحدى القوافل ، اقترب منه ـ عمر ـ وسـأله: كيف تركتَ الناس في بلدك .. ؟

فقـال الرجـل : إن شـئت جمعـتُ لـك خـبري ، وإن شـئت بَعَّضتــه تبعيضًا .!!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه .. أي : أوْجِزه ..

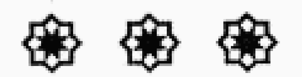
قال الرجل :

" تركت البلاد، الظالم بـها مقـهور .. والمظلـوم منصـور .. والغنيُّ موفور .. والفقير مجبور" .

وسارع ـ عمر ـ بالانصراف بعيداً عن مُحدِّثه قبل أن تشي به انفعالاته ودموع الشكر التي راحت تتحدَّر من مآقيه .

وولّى مسرعًا ، مسرعًا ، وقلبه الشكور ولسانه الذَّكُـور يضرعـان إلـى الله بآيات الحمد والثناء . والتفت إلى "مُزاحم" وقال له :

"والله، لأن تكون البلاد كلها على ما وصـف هـذا الرجـل، لأحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس" .. !!





تعريف بالكاتب

خَالد مُحَمَّد خَالد

(المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، فى "العدوة" إحدى قرى محافظة الشرقية بمصر، والتحق فى طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بضع سنوات، حفظ فى أثنائها قدراً من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة..

ولما عقد والده - الشيخ محمد خالد - عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمله إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر فى ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله فى وقت قياسي وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلاً فى مذكراته "قصتى مع الحياة" - ثم التحق بالأزهر فى سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايخه الأعلام طيلة ستة عشر عامًا حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجًا وأبا لاثنين من أبنائه.

عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى تركه نهائيًا سنة ١٩٥٤، حيث عين فى وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم ترك الوظائف نهائيًا بالخروج الاختيارى على المعاش عام ١٩٧٦.

وبُذلت له عروض مغرية كثيرة لنيل وظائف قيادية فى الدولة، سواء فى رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر عنها، ورفض عروضًا أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن يبقى فى حياته البسيطة المتواضعة التى يغلب عليها الزهد والقنوع(*).

وقد تقلّبت حياته فى أطوار متعددة، من حفظ مبكر وسريع للقرآن الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة، تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس فى السياسة مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسية أعواد المنابر، ثم إلى واعظ تغمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلى عابد مشغول بالآخرة، وصوفى مشغول بربه، وهكذا.. وقد شرح ذلك بالتفصيل فى مذكراته التى كتبها وجعل عنوانها "قصتى مع الحياة".

وفى سن مبكرة التقى بشيخه المربى الكامل الشيخ محمود خطاب السبكى إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام - كما وصفه هو - وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهداً على ما يفيض الله على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه (**).

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهى وندى.. يوقع الكاتب فى حيرة.. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المقربين.. فنحن ننشق عبيرهم الذى يتضوع بهاء وعطرًا.. ونتقلب فى نعماء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة.. بيد

(*) انظر "قصتى مع التصوف" لخالد محمد خالد نشر دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(**) انظر قصتى مع التصوف.

أن الاقتراب منـهم يفـرض علينـا مـن التبعـات مـالا نطيـق.. والحديـث عنهـم، وتفسير مواقفهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعـل الله عسـره يسراً "(*) .

***

وكما كانت حياته في بواكيرها كالنهر الذى تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب في تدفق وعنفوان، فإنه كلما اقترب من البحـر هـدأت أمواجـه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صـار لـه هـدوؤه وشـموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك؛ بـدأت ثـائرة متدفقـة..وانتـهت إلـى الرسوخ واليقين.. وفي كلها كان مخلصًا، لا يبتغي بأي منها عرضًـا مـن أعراض الدنيا. بل لقد جاءته الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوصد دونها بابه ...

ومثال على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه في مجلـس قيـادة الثـورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كـان يشترى منـها ـ مـن جيبـه الخـاص ـ مئات النسـخ ويوزعـها علـى زملائـه الضباط(**)، ومع ذلك فإنه لمّـا قـامت الثـورة لـم يـرد أن يسـتفيد منـها، وكانت فرصته في ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف ناقداً للثورة موجهًا لها، مطالبًا حكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية

(*) من مقدمة الكتاب "في صحبة الشيخ محمود خطاب إمام السنة وقطب الأقطاب" للأستاذ توفيق أحمد حسن، دار المقطم بالقاهرة.

(**) انظر "قصتي مع الحياة " فصل: حوار مع عبد الناصر.

أبداً" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى تُوجت بموقفه الفريد فى "اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم ـ حينئذ ـ ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب.. بعد أن نزعوا أموالهم غصبًا وظلمًا، ونكلوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز فى ذل، وبعد غنى فى فاقة وعوز، وبعد أمن فى خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم.. فكان هو الصوت الوحيد الذى ارتفع فى وجه الصمت والخوف، مدافعًا عن الحق، طالبا لهم ـ بدلاً من العزل السياسى ـ "العدل" السياسى، ولما أخذ التصويت فى المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسى، كانت يده هى الوحيدة التى ارتفعت فى سماء القاعة التى ضمت ـ يومئذ ـ ثلاثمائة وستين عضوا (*).

* * *

منذ كتابه الأول "من هنا نبدأ" خرج خالد محمد خالد على الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنافح عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعى وزعيم فكرى تعلقت به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس فى مصر وحدها، بل وخارجها أيضا..

وطبع "من هنا نبدأ" ست طبعات فى سنتين اثنتين، وتُرجم فى نفس السنة التى صدر فيها إلى الإنجليزية فى أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات فى أنحاء متفرقة من أوربا وأمريكا..

(*) انظر "قصتى مع الحياة "فصل: حوار مع عبد الناصر.

ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيته الصادقة جعلاه ـ فيما بعد ـ يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه.

وهنا يتجلى واحد من مواقفه التى امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعى إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقلبه فى ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا الرأى، فلم يخجل ـ وهو الكاتب الكبير ـ من أن يعلن أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته.

فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية.. ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتابًا كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة..

حق وقوة..

ثقافة وحضارة..

عبادة وسياسة.."

* * *

وقد خلف ـ رحمه الله ـ ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتابا، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التى لم تُجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله تلك نفعًا كبيرًا، وتلقفها القراء فى شوق، لأنها ـ ككل أعماله اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الجياشة..

وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشارًا هى الإسلاميات التى جاءت فريدة فى بابها من حيث الأسلوب، وطريقة التناول، وأشهرها على الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذى تحدث فيه باقتدار عن سيرة ستين من

أصحاب رسول الله ﷺ، و "خلفاء الرسول ﷺ" الذى ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١ـ "وجاء أبو بكر"
٢ـ "بين يدى عمر"
٣ـ "وداعًا عثمان"
٤ـ "فى رحاب على"
٥ـ "معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة فى أنحاء عديدة من العالم..

ومن كتبه أيضًا: "أبناء الرسول فى كربلاء" و "والموعد الله" و "لقاء مع الرسول ﷺ" و "كما تحدث الرسول ﷺ" و "كما تحدث القرآن" و "إنسانيات محمد ﷺ" و "عشرة أيام فى حياة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية والإنسانية والاجتماعية والفلسفية فهى عديدة كتب منها ثلاثة كتب فى موضوع الديمقراطية وحدها، وهى:

"الديمقراطية أبدا" و "دفاع عن الديمقراطية" و "لو شهدت حوارهم لقلت".. راجع قائمة المؤلفات فى آخر الكتاب..

وكتب ـ أيضًا ـ مذكراته فى كتاب "قصتى مع الحياة"، وقد نشرت لأول مرة فى جريدة "المسلمون" السعودية و "المصور" المصرية فى آن واحد، وبعد أن تمت طبعت فى جزء واحد فى مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.

وكان آخر كتبه "الإسلام ينادى البشر"، وقد أراد له أن يخرج فى

ثلاثة أجزاء:

الأول: إلى هذا الرسول ﷺ"

الثانى: "إلى هذا الكتاب" (القرآن)

والثالث: "إلى هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

* * *

أما عن عادته فى الكتابة، فإنه لم يكن يجلس للكتابة ـ قط ـ إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، وتكون الفكرة التى يريد الكتابة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس فى أى مكان، وفى أى ظروف ويبدأ فى الكتابة دون أن يلتفت لما حوله أو ينشغل به.. وقد تمضى ـ أحيانا ـ من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئًا لأنه لم يجد ما يهيج فى نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها بيسر وروعة، واقتدار. وكان كثيراً ما يُسأل عن السر فى جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب فى الكتابة لا يصنعه شىء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاكر النابلسى فى كتابه الذى كتبه عنه نموذجًا من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لغوى"(*)، وهو العنوان الذى يصف رشاقة أسلوبه وجماله، ونفوذه إلى القلوب..

* * *

وكان ـ رحمه الله ـ طيب النفس، مستبشراً فى عامة أوقاته، تغلب

(*) ثورة التراث، دراسة فى فكر خالد محمد خالد للدكتور شاكر النابلسى.

عليه السكينة والتأمل..

وكان غاية فى الكرم، غاية فى التواضع ونبل الأخلاق، باراً بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجيران، ساعيا - إلى آخر أيامه - فى قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح بعضهم عليه حتى فى أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".

واتسمت حياته كلها بالزهد فى المال والمناصب ومظاهر الجاه، وقد استفاض فى وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه (*) ومن ذلك أيضا مواقفه التى أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الأخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن نكلت الثورة بهم ومزقتهم كل ممزق، طُلب منه مهاجمتهم ونقدهم فأبى ولم يخضع لإغراء ولا تهديد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان.. أما اليوم وهم فى المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز على جريح".

وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوى تفاصيل هذا الموقف فى مذكراته التى نشرها فى جريدة "آفاق عربية" (العدد رقم ٥٧٣). (**)

* * *

كان - رحمه الله - محبًا للخير، مسارعًا إليه، كأنه كان يصف كوامن الخير فى نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع الرسول ﷺ":

(*) راجع "قصتى مع التصوف" ص ٣٧ وما بعدها طبعة دار المقطم بالقاهرة.

(**) راجع "قصتى مع التصوف" ص٤٤ وما بعدها . ط المقطم.

"فإذا سألتنى ـ أيها القارىء ـ ما الخير؟ أجيبك من فورى: إنه الخير.. إنه ذلك الذى يجعل الإنسان إنسانًا حى القلب، ريان الضمير.. وذلك الذى يجعل منك ملاذًا للآخرين، يأوون إليك كما يأوى المحرور إلى ظل شجرة، أو كما يأوى الظمآن إلى عين ثرة تفيض بالماء البارد النمير.

هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك البارة الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء فى حياته هو أن تسع حياته الناس رحمة وبرًا، ومحبة وودًا".

فكان مُحبا للناس، لجميع الناس، مستأنسًا بهم، متوددًا إليهم، متغافلاً عن أخطائهم متسامحًا مع من يسيئون إليه..

كان ـ باختصار ـ متخلقًا بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على أن يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادى ـ كسائر الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ يقين..

وكان يعزو ذلك إلى التصوف فيقول فى مذكراته:

"ومرة أخرى أنحنى إجلالاً للتصوف، فهو الذى سكب فى روحى كل ما روى ظمأها إلى الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقى لى .. من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فإليه ـ أولا ـ يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان ـ رحمه الله ـ ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا فى قلبه، فلم ينتم إلى أى من طُرقه، بل تلقاه مبكرًا على

يد شيخه السبكى رضى الله عنه (*)

وكان محبًا لأهله أينما وُجدوا مداومًا على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين .

ومن أقواله المأثورة:

- "إنى لا أرفض إنسانًا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد" .
- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد فى النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى فى الكون ولا تقابلها"
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهدًا ، والسماء سُبلاً" .
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"
- "لابد للحب كى يصفو ويدوم أن يكون خالصًا ، صافيًا ، نقيًا ، ويكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين" .
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نُبعث.. ومن كان فى شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ" .
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التى تفرضها وللسلوك الذى نحمل به هذه التبعات" .
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسرّ الباهر الذى تحمله، والحكمة الثاقبة التى تمنحها" .

(*) راجع قصتى مع التصوف.

- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمنا إلا حييا، ولا منافقًا إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".
- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها ترابًا فى تراب".
- "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
- "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك".
- وسُئل عن القومية العربية فأجاب: إنى لا أعرف شيئًا عن القومية العربية، ولكنى أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".
- وقال شعراً فى عيد مولد النبى ﷺ:

يا عيد مولده كم ذا تواتينا   تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكينا
قل للرسول إذا ما جئت روضته   أدرك شعوبك قد حار المداوونا

* * *

وفاته:

كان - رحمه الله - قد مرض مرضًا طويلاً، واشتد عليه فى سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له، وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يُصلى عليه في الجامع الأزهر، معهده العلمى، ومرتع صباه وشبابه، وأن يُدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو فى المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م - عن عمر يناهز الستة والسبعين عامًا.

* * *

اللهم إنى قد قلت فيه مبلغ علمى..

ولا يخلو كلامى من أثر حب الولد لوالده..

اللهم لا تكله إلى عمله..

واشمله برحمتك يا بر يا رحيم..

وصل اللهم على الحبيب الشفيع..

سيدنا محمد ..

وسلام على المرسلين..

والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت